

809
J116A
2 - Q. 2

~~1 - Jun 70~~

J. LIN

~~14 APR 1985~~

JAFET LIB.

18 OCT 1977



بين البحر والصحراء

تفليس جبري

809

J114 A

c. 2

بين البحر والصحراء

٤٩

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٩ — ديسمبر سنة ١٩٤٦



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بصر

فاتحة القول

في صحارى جزيرة العرب نبتت أصول لغتنا التي حفظت لنا
مبادئ ذوق العرب وحسهم وشعورهم وعاطفتهم وفكرهم ؛
وما زالت هذه اللغة تدرج من بدو إلى حضر حتى بلغت أمواج
بحر الروم ، فدفعت إليها هذه الأمواج ما تحمله من فلسفات وعوالم .
فهل أستطيع في هذا الكتاب أن أتنقل بالقارى الكريم
بين البحر والصحراء فنتمتع بقليل من مشاهد الفنية والفكرية :
حس الطبيعة ، الأدب النفسى ، الأدب الوطنى ، فنوازن
ولو موازنة يسيرة بين هذه المشاهد المختلفة ، فإذا استطعت شيئاً
من ذلك فقد بلغت ما أريد ؛ أما الذى أريده فهو ليس بشئ
أكثر من أن يظل أدبنا على تراخى الأحقاب ملء الذهن
والقلب والنفس .

نزهة في جزيرة العرب

من كلام بعض الإفرنجية : « حب الماضي مولود في الرجل ، وإذا بحثنا عن السبب الذي من أجله يتلفت خيال البشر بأجمعه ، الزاهي منه والذابل ، الكئيب والفرح ، عن الحاضر إلى الماضي ، وينبسط إلى الخوض فيه ؛ وجدنا أن الماضي إنما هو نزهتنا الوحيدة ، والمكان الفرد الذي نستطيع فيه الإفلات من مضاجرتنا ومن آلامنا ، ومن أنفسنا » .

فما أكثر المضاجر والآلام في يوم مثل يومنا ! وما أمس حاجتنا إلى الهرب مما يقلق أنفسنا ويؤلمها بعد حرب ما عرف البشر نظيرها في تأريخهم ، فلنجتهد في التفتيش عن بقعة من ماضينا نعيش فيها ساعة من الزمن ، لعلنا نجد في هذه البقعة عبرة لنا أو فرجة أو فائدة . وأظن أن أفضل بقعة نفزع إليها إنما هي البقعة التي انحدرت إلينا من أفيائها عروبيتنا ولغتنا وأدبنا ، فلنسرح في صحارى الذين أورثونا هذه العروبية وهذه اللغة وهذا الأدب ، ولنتمتع من طبيعة هذه الصحارى فلعلنا نستريح من

حضارة غلب العلم فيها على الأخلاق ، فكانت غلبته سبباً في فناء
الناس وتهديم المدن وتقسية القلوب !

كتب لي في سنة ١٩٣٥ أن أضرب في منازل بني تميم في
نجد وهي الدهناء ، وأن أبيت — في ليلة من ليالي الشتاء الرابعة —
على جوانب الزبيدية ، وهي بركة بين بغداد ومكة ، وأن أفترش
ذراعي في ظلام الليل على مقربة من جبلي طيء وهما : أجأ
وسلمى . لقد ضربت في طائفة من قفار جزيرة العرب ، ورات
عيني صفات هذه القفار في الاتساع والاستواء والبعد والغلظ
والصلابة والسهولة والارتفاع والانخفاض وغيرها من الصفات ،
فأحطت بمض الإحاطة بيسير من رمال الجزيرة وجبالها وترابها
وغبارها ورياحها وآبارها وبرقها ورعدها ومطرها ونباتها ، فما
كدت أخرج من سواد العراق ، من ظلال هذه النخل
الباسقات على ضفاف دجلة والفرات حتى انقطعت عن كل
حضارة وعن كل عمران ، فلم أرى إلا وحشة في الأرض والسماء ،
ولئن كنت عاجزاً عن تصوير هذه الوحشة فلم يعجز « بوفون »
عن هذا التصوير ، فقد قال في وصف صحاري البتراء : « تصوّر

بلداً لا خضرة فيه ولا ماء ، وشمساً محرقة ، وسماً مُجْهِمة ، وسهولاً من رمال ، وجبالاً جرداً تقع عليها العين ويضيع فيها البصر من دون أن يرى أى شىء حى ، وأرضاً ميتة عرّتها الرياح لا تجد فيها إلا عظاماً وحصىً مبعثراً وصخوراً منتصباً أو مقلوباً وقفراً مكشوفاً لا يتنفس فيه المسافر تحت ظل من الظلال ولا يصحبه فيه إلا ظله وحده ، لا شىء يذكره الطبيعة الحية ، عزلة تامة أُرهب من وحشة الغابات ، فالغابات لا تخلو من الأنس لأنها مخلوق من المخلوقات ، فالإنسان يرى نفسه فى هذه الصحارى وحيداً منعزلاً مجرداً تائهاً فى مواضع خالية لا حدود لها ، ينظر إلى الفضاء وكأن هذا الفضاء قبره ، إذا أضاءت الشمس كان ضياؤها أكاأب من ظلمة الليل فلا يمتد هذا الضياء إلا لىضى عُرَى الرجل وعجزه ، أو لىذكره هول حاله إذا بسط لعينيه عظمة المسافات التى تفصله عن الأرض المأهولة ، وهى مسافات يحاول عبثاً أن يقطعها لأن الجوع والعطش والحر يجعله فى كل مسافة منها واقفاً بين اليأس والموت ! » .

هذه الصورة الناطقة تكاد تكون صورة صحارى جزيرة العرب بمجامعها ، وعلى الرغم من هذا كله فقد رزقت العرب ما نسميه

في هذا العصر : حس الطبيعة ، فتغنى شعراء جاهليتها بمحاسن
أرضهم وسماهم ، فانبثق نور من ظلام براريها وخرج مريح من
عبوس آفاقها وتدفق بشر من تجهم سماها وجاء خصب من
جذب أرضها .

حسُّ الطبيعة

١

في الجاهلية

إذا كان يتعذر علىَّ في فصل مثل هذا الفصل أن أستقصى في ذكر الشعراء الذين حسُّوا الطبيعة في الجاهلية وشعروا بفتنتها، فلا يتعذر علىَّ أن أضرب بعض أمثال لهذا الحس والشعور .

لم يجمد امرؤ القيس في مشاهد الطبيعة ، فإذا تحرك البرق في السماء فتحركه في شعره يحكي تحرك اليدين ، وإذا أضاء فضوءه يحكي ضوء مصباح الراهب إذا أُنعم صبُّ الزيت عليه ، ففي مشاهد مثل هذه المشاهد يهتز امرؤ القيس فيدعو أصحابه إلى مشاركته في هذا الاهتزاز ، يدعوهم إلى أن ينظروا إلى السحاب وأن يرقبوا مطره ويشيموا برقه ويتأملوا عظم السحاب وغزارته وعموم جوده ، ثم لا نراه يغفل عن فعل السحاب في الأرض .

ما هو هذا الفعل ؟ ينصب سيل هذا الغيث من الجبال والآكام فيقلع الشجر العظام ، ثم ينزل الأوعال العُصم من الجبال من

شدة وقع مطره عليها وفرط انصبابه ، ثم لا يترك هذا الغيث شيئاً من جذوع النخل أو من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعاً بالصخور أو محصصاً ، وقد يجد امرؤ القيس أن هذه الصور غير ناطقة ، فينفخ في السحاب بعض الروح ، فيرى أن الجبل الذي ينزل المطر عليه مثل سيّد قوم قد تلف بكساء مخطط أو مثل أكمة تشبه لما أحاط بها من أغشاء السيل فلكة مغزل ، ثم يعن في هذا الضرب من التصوير ، فكأن المطر في نزوله تاجر يمانٍ وكأن أصناف النبات الناشئة عن هذا المطر أنواع من الثياب التي ينشرها هذا التاجر عند عرضها على البيع . وبعد أن يفرغ من الإشارة إلى آثار المطر في الجماد والنبات يشرع في وصف آثاره في الحيوان فكأن المسكاكي قد سقيت بعد هذا المطر سلافاً من رحيق مفلقل في الأودية التي نزل المطر فيها لحدة ألسنتها وتتابع أصواتها ونشاطها في تغريدها ، وإذا ترك الطير انتقل إلى السباع فكأن هذه السباع حين غرقت في سمول المطر أصول البصل البري لتلطخها بالطين والماء الكدر .

وكما لم يخل شعر امرئ القيس من حس الطبيعة فكذلك لم يخل شعر لمبيد من هذا الحس ، فقد تغنى لمبيد بديارٍ ودمن

رزقت أمطار الأنواء الربيعية فأمرعت وأعشبت لترادف الأمطار
 المختلفة عليها؛ فمن هذه الأمطار مطر سحابة سارية، ومنها مطر
 سحاب غاد يلبس آفاق السماء بكشافته وتراكمه، ومنها مطر سحابة
 عشيّة تتجاوب أصواتها. ماذا فعلت هذه الأمطار في الأرض؟
 لقد أخرجت ضروباً من النبات وأصبحت الظباء والنعام ذوات
 أطفال بجانب الديار التي تغني بها لبيد، ثم كشفت السيول عن
 أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها، فكان هذه الديار
 كتب تجدد الأقلام كتابتها!

أما عنقرة فبعد أن شبه طيب نكهة حبيبته بطيب روضة
 ناضرة لم ترع ولم يصبها سرجين ينقص طيب ريحها ولا وطئها
 دواب تنقص نضرتها أخذ يصور السحابة التي مطرت على هذه
 الروضة، فقد مطرت عليها كل سحابة سابغة المطر لا برد معها،
 أو كل مطر يدوم أياماً ويكثر ماؤه حتى تركت كل حفرة
 كالدرهم لاستدارتها بالماء وبياض مائها وصفائه، وفي كل
 عشيّة يجري عليها ماء السحاب ولم ينقطع عنها، وقد حلّ الذباب
 بهذه الروضة فلا يزالها ويصوت تصويت شارب الخمر حين
 رجع صوته بالغناء، وهو يصوت حال حكه إحدى ذراعيه

بالأخرى مثل قدح رجل ناقص اليد قد أقبل على قدح النار .



هذه نماذج مختلفة من حس الطبيعة في شعر الجاهلية ، ولقد رأينا في نزهتنا في جزيرة العرب قحط الأرض وعبوس السماء ، فإذا كان تصوير المطر أبرز شيء في حس الطبيعة في الجاهلية فالسبب في هذا عظم منزلة المطر والنبات في الصحارى . على هذا المطر وهذا النبات تتوقف حياة القبائل والمواشي ، فعلى الرغم من موت الطبيعة في صحارى الجاهلية كانت هذه الطبيعة مادة وحى للشعراء . وإذا رجعنا من نزهتنا في جزيرة العرب بنتيجة من النتائج فإننا نرجع بالنتيجة الآتية : لقد أعطى العرب جزيرتهم أكثر مما أعطتهم ، أعطتهم الشيخ والقيصوم والسمور والسلم والعرفج والرند والعرار فجعلوا من هذا النبات في شعرهم ما يشبه الحقائق الغلب حتى يقول كل واحد منا في نفسه : كيف ينشأ حس الطبيعة في صحارى جزيرة تظهر آثار الموت على كل ناحية من نواحيها !

٢

في القرآن

والقرآن نفسه لم يكن بعيداً عن حس الطبيعة ، أفلا نذكر
الآيات التي تشير إلى انقطاع السماء وانشقاقها وإلى انتشار
الكواكب وانكدار النجوم وتكوير الشمس وتفجير البحار
وتسيير الجبال ونسفها وعسيسة الليل وتنفس الصبح وعصف
الريح الصرصر العاتية وإلى الصدر الخضود والطلح المنضود والظل
الممدود والماء المسكوب والسحاب المركوم والبحر المسجور .

وزيادة على هذا كله كان القرآن الكريم يدعو الناس إلى
الطبيعة ، مرة يدعوهم إلى سمائها : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم
كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها
وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة
وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا
به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد » .

ومرة يدعوهم إلى حدائقها : « وهو الذي أنزل من السماء ماء

فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضيراً نخرج منه حبّاً
متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب
والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر
وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

٣

بركة البحترى وبحيرة «لامارتين»

إلا أنا إذا أردنا أن نلمس حس الطبيعة في أدبنا وأن نوازن بينه وبين بعض حس الطبيعة في أدب الإفرنجية لزمنا أن نبعد قليلاً عن صحارى الجاهلية وأن نجعل نزھتنا في قصور بنى العباس وعلى شواطئ البحيرات وفوق عباب البحار بين عصف الرياح وضجيج الموج ، فإننا نرى في نزھتنا الجديدة أن حس الطبيعة قد دخل في طور غير طوره الأول ، فبدلاً من أن نشم في الشعر رائحة شيخ الصحراء وقيصومها فإننا نشم روائح الورد والرجس والآس وغيرها ، وبدلاً من أن نصعد في جبال من رمال فإننا نشق جبالا من الأمواج ، وليس من الضروري أن أذكر في هذا المقام كثيراً من الشعراء الذين أفرغوا حس الطبيعة في شعرهم في قوالب تختلف عن قوالب امرئ القيس ولبيد وعنترة ، وإنما أجتزئ بعرض أنماط من أقوالهم لعلنا نهتدى إلى يسير من الفرق بين أدبنا في هذا الباب وبين الأدب المنحدر إلينا من وراء البحار . فلنسرع إلى حدائق البحترى وإلى بركته وبحيرة «لامارتين» .

أنس أبو عبادة البحتری بكل منظر من مناظر الطبيعة فتغنى بالربيع وهو ينمّم وشى حلتها الخضراء وبالخريف وهو ينسج لها حلیمتها الصفراء واستوفت عينه حظّها من رباها وقد صبغها الليل بلونه الأسود ومن آفاقها وقد اختضبت بالصباح الورد وتملّت أذنه قسّمها من هديل حمامها وحفيف ورقها وضجيج بحرّها وزجل رعدھا ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وآسها وزعفرانها وأقحوانها ، فقد ملأ شعره من كل جزء من أجزائها ، من ذهب شمسها وفضة مائها ومن ركام ثلجها على الجبال واندفاق غيشها في غداة مخضلة أو عشي مبتل .

لقد صقلت خياله نواح كثيرة في هذه الطبيعة فما فتح عينيه في صباه حتى رأى بلدته منبج ، فتمتّع من طيب هوائها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وضحة تربتها ، وما نشأ وترعرع حتى سهح في أهاضب لبنان وغوطة دمشق وبساتين حلب وجنات الساجور ونخيل العراق ، وعكف على قصور بني العباس كالجعفرى والصبیح والمليح ، فتكامل خياله في أفياء حيطان من زجاج وسقوف من ذهب وبرك من رخام ، فنشأت عن هذا كله بينه وبين الطبيعة صلة محكمة ، فقد فهم لغتها وألحانها وعرف وجوهها

وألوانها ، فكان شعره قطعة من هذه الطبيعة .

كان يلجأ إلى الطبيعة في كل حال يفتش فيها عن صورة من صور أحبته ، فلا يستلهمها لوناً من الألوان إلا ألهمته إياه ، ولا يستوحيا إلا أوحى إليه ، فكان لا يرى ضحك الأقاحي إلا رأى وراء هذا الضحك رضا بآبروداً ، وكان لا يرى جنوح الشمس للأصيل إلا رأى في أضعافها جنوح حبيبته لو شك بعد أو فراق ، وكان لا يرى تعطف أملود البان إلا رأى في ظلاله ميل هذه الحبيبة إلى العناق ، وما كان يبدو له صحن العراق وتكشف له سجون الدجى عن ماء العراق ونخيله ويهدل الحمام في جنباته إلا ذكرته هذه المشاهد كلها أحبابه .

لقد غمره حب الطبيعة لأنها تشتمل على صور ترضى عينيه وأنفه وأذنه ، فلولا هذا التناسق بينه وبين الطبيعة لما وجد لها معنى من المعانى ، فأى معنى لتنفس الروض في جنح بارد من الليل لو لم يذكره هذا الروض أنفاس أحبته ! وأى معنى لترقرق الندى فوق الشقائق لو لم تحمل هذه الشقائق دموع التضاني في خدود الأحباب ! وأى معنى للمعان البرق لو لم يكن هذا المعان ابتسامة من الابتسامات !

على أنه كان ينفصل في بعض الأحيان عن حراسه فلا يريد أن يرى في الطبيعة صوراً تهز هذه الحواس ، وإنما كان يريد أن يرى لها حياة مستقلة ومزاجاً منفرداً ، فإذا رأى الربيع رأى له وجهاً يضحك ولساناً ينطق ، وإذا رأى النوروز في غلس الدجى رأى ورداً نائماً ينبهه هذا النوروز ، وإذا رأى برد الندى رأى وراءه صدرأ ضيقاً يحمل الحديث فلا يلبث أن ينث هذا الحديث المبكتم .

غير أنه سرعان ما يعود إلى عادته من الاتصال بالطبيعة فينكر عليها الاستقلال بالحياة ولا يرى فيها إلا صور أحبته ، فلا تتعطف أشجار قصر من قصور الخليفة إلا كأن هذا التعطف صورة مشى العذارى في عشيّة من العشايا .

ولم يقتصر على التعلق بالطبيعة لأن في كل جزء من أجزائها صورة أحبته وإنما تعاقبها لأنها تمثل له أشكالاً يفتقر إليها فنه ، فلما أشبعت هذه الطبيعة مجامع حواسه ، فقد أروت طائفة من فنه ، فكان لا يرى حيطاناً من الزجاج في قصر من قصور بني العباس إلا مثلت له هذه الحيطان لجج البحر وهى تموج على الساحل ، وكان لا يرى تقويف الرخام في هذا القصر إلا رأى

في هذا التفويف حبك الغمام وقد رصفن بين ألوان متفاوتة وأشكال متباينة وكان لا يرى الذهب الصقيل الذي لبسته السقوف إلا رأى نوراً يضيء على الظلام ، فكانت الطبيعة مادة حسه ومادة فنه ، فألهمت هذا الحس ضروب الاهتزازات والابتسامات والتعطفات وألقت على هذا الفن حليها وحللها ووشيا وديباجها .

ولكن الطبيعة أفسح من أن تكون مستودعاً لا يرى فيه الشاعر إلا صورة اعتدال القد واهتزاز الخصر وابتسام الثغر ، أو صورة سقوف من ذهب أو حيطان من زجاج ، فلم يصل البحترى شعوره بالطبيعة وإنما وصل بها حواسه ، فاتصل بها من ناحية المادة وانفصل عنها من ناحية الروح ، وإذا تداعى الحمام في بعض الأحايين وبعث هذا الحمام في قلبه كمين الأسى وصل البحترى دمه بنوح الحمام ولكن قلبه بقي محجوباً عن الطبيعة ، وقد يزيد الغمام حيناً في شوقه ويهيجه زجل الرواعد تحت الليل ولكنه كان لا يناجى هذا الغمام ولا يناغى هذه الرواعد ، فلم يقاسم الطبيعة همومها ولم تقاسمه همومه ، ولم يشركها في أفراحها ولم تشركه في أفراحه ، وإذا أردنا أن نعرف كيف نألف الطبيعة

وكيف يألفها الإفرنجية وجب علينا أن نقارن بين يسير من نظراتنا ونظراتهم إليها .

وقف البحتری على بركة الجعفری قرب « سرّ من رأى » فعَدَّ هذه البركة واحدة وعد البحر ثانيها في العظمة ، فماذا رأى على أحفّة هذه البركة ، رأى دجلة في جوانبها وهي غیری تنافسها في الحسن طوراً وتباهيها طوراً ورأى جنّ سليمان قد أبدعوها وأدقوا في معانيها ، ورأى ماءها وكأنه الفضة البیضاء تسيل من سبائكها ورأى الصبا تعلوها فتبدي لها حبكاً مثل الجواشن قد صقلت حواشيها ورأى الشمس تضاحكها والغيث يباكيها ورأى سماء ركبت فيها من النجوم ورياضاً تحيط بها كأنها ريش الطواويس !

كل هذا حسن ! وكل هذا يلهى العين والأذن ؛ ولكن أفلا نجد على صفحات الماء إلا صوراً مادية ، أفلا يكون للقلب نصيب واف من فيض شعوره على هذا الماء !

وقف البحتری وقفته هذه ووقف بعض شعراء الإفرنجية على البحيرات ، فهل تشبه وقفة « لامارتين » على بحيرته وقفة البحتری على بركته ، إني لا أحفظ إلا قليلاً من شعر « لامارتين »

في بحيرته ، ولكن هذا القليل كاف على ما أعتقد في بيان مبلغ فهمنا للطبيعة وفهم الإفرنجية لها .

ما الذى يهم « لمارتين » فى نزته على بحيرة « بورجه » مع حبيبته « إثير » ؟ إن الذى يهمه إنما هو أن تذكر هذه البحيرة أن « لمارتين » كان يجدف أمواها مع حبيبته فى شىء من الصمت والهدوء وأن الأذان كانت لا تسمع على وجه الماء وتحت السماء إلاّ جلبة المجاديف التى كانت تصدم متناسق الأمواج ، ماذا كان يسمع « لمارتين » على هذه البحيرة ؟ كان يسمع أصواتاً تجهلها الأرض ، تأتى من ساحل البحيرة فتشق الأمواه ، كان يسمع أصواتاً يصغى الموج إليها كل الإصغاء ، ماذا فى هذه الأصوات ؟ فيها خطاب للأزمان والساعات ، فكانها تطلب إليها أن تخفف سيرها ، وأن تفسح للمارتين فى التمكن من ذوق الذات السريعة التى تحملها أيامه الحسنة ، ماذا كان يرى « لمارتين » على هذه البحيرة ، كان يرى صخرات خرساً وغابة مظلمة ، فكان يطلب إلى هذه البحيرة وإلى هذه الصخرات وإلى هذه الشجرات التى يبقى عليها الزمن أو يجد لها شبابها ، كان يطلب إليها وإلى الطبيعة الحسنة أن تحتفظ بذكرى هذا اليوم

الطيب الذى قضاه مع حبيبته على وجه الماء !
 نفخ « لامارتين » روحاً فى الطبيعة من عنده وأشرکہا فى
 آلامه وأحلامه ، فوصل بها كل ناحية من نواحي قلبه ، كان
 يجد فى هذه الطبيعة معبداً ، يسمع فيه على عزله وعلى هدوئه
 أصواتاً تعلمه بما عند الله ، فالذى يجده فى الطبيعة إنما هو الرفق
 والهدوء والتناسق ، أى كل ما يبسط القلب ويرققه ، وكل ما
 يحمل النفس على طول التأمل والأحلام ، أمّا البحترى فلم يجد
 فى الطبيعة إلا ما يسرُّ الأذن والعين والأنف !

على أى شيء يشتمل شعر التأملات ؟ لقد شغلت المرأة التى
 أحبها « لامارتين » قلبه فى كل هذا الشعر ، فإذا طلع القمر
 كان لا يجد فى ضوء هذا القمر إلا أرواح الموتي التى انحدرت
 إليه بأحاديثها ، وإذا نزل الوادى الذى قضى فى ظلاله ميعه صباه
 كان لا ينزله إلا ليريح نفسه الأليمة التى لم يبق فيها إلا
 الحب وحده ، وإذا تنزه على بحيرة « بورجه » مع حبيبته التى
 فقدھا طلب إلى هذه البحيرة أن تحتفظ بذكرى سعادته السريعة ،
 وإذا طلع عليه الخريف وأضاءت هذا الخريف شمس مُمتعة
 عاد « لامارتين » إلى التألف على الحياة وقد استعدَّ للموت ،

وهكذا شأنه في بقية أشعاره التي مزج فيها روحه بالطبيعة ، ففي
شعر النجوم أعار هذه النجوم روحاً من عنده ، وعدّ نفسه
نجماً يلهم الناس الخير ، ويعزيهم : أيتها الشمس ! أيتها العوالم
التائهة : قولي لنا أقال لك شيئاً ؟ أقال لك إلى أين نحن
ذاهبون ؟

وفي شعر نبع الغابات نرى أن خير الماء قد ولد في ذهنه
أفكاراً تشيع فيها التقوى والماليخولياء !

بحيرة المتنبى

إذا كان البحترى لم يستطع أن يصل — فى نزھتنا على جوانب
بركة الجعفرى فى « سرّ من رأى » — نفوسنا بموج هذه البركة
كما وصل بها حواسنا فلمنتقل إلى سواحل بحيرة طبرية فلعلّ
المتنبى يعوّضنا فى أمواج بحيرات فلسطين ممّا فاتنا من اللذة
الروحية فى أمواج برك العراق !

قدم المتنبى طبرية وضرب بعينه على شواطئ بحيرتها ،
فإذا رأى فى هذه البحيرة ، قال يخاطب على بن إبراهيم التنوخى :

لولاك لم أترك البحيرة والغوّ	رُ دقّ وماؤها شَم
والموج مثل الفحول مزبدة	تهدر فيها وما بها قُطم
والطير فوق الحباب تحسبها	فرسان بُلُقٍ تخونها اللجم
كأنّھا والرياح تضربها	جيشا وغى : هازم ومنهزم
كأنّھا فى نهارها قمر	حفّ به من جنانها ظلم
تغنّت الطير فى جوانبها	وجادت الأرض حولها الديم
فهى كإوىة مطوّقة	جُرّد عنها غشاؤها الأدم

لم ير المتنبى من وجه الطبيعة على سواحل البحيرة إلا غوراً
دفيئاً وماءً بارداً، ولم ير من هذا الماء إلا موجاً هادراً، ولم ير فوق
هذا الموج إلا الطير والرياح؛ فلا تكاد صور الجيش تفارق ذهنه
لنشأته في البادية على رؤية هذه الصور ولطول ألفته إياها في
حروب سيف الدولة، فلم يسمع المتنبى تغريد الطير في سماء
طبرية وإنما رأى قتالها، ولم يسمع عصف الرياح فيها وإنما رأى
ملاحمها. فلم تكن الطير والرياح تحت سماء طبرية في نظر المتنبى
مشاهد طبيعة تسلي الأذن والعين وإنما كانت مشاهد معركة :
جيش هازم وجيش منهزم، خلق المتنبى لتخليد المعارك التي
اقتحمها سيف الدولة فشنع بها غواث الروم عن ديار الشام، ولما لم يجد
المتنبى في أرض طبرية حرباً يشهد هولها كما شهد هول حروب
الروم من وراء حلب خلق في سماء طبرية حرباً تلهو بها عينه
وأذنه وليكن بدلاً من أن تكون هذه الحرب بين العرب والروم
كانت بين الطير والرياح وهي حرب هادئة لم ينفجر فيها دم ولا
انتثر فيها عظم وإنما انهزمت فيها الطير مرة والرياح مرة فلم
يصبغ وجه طبرية بسببها بحمرة الدماء.

بحيرة ابن الساعاتي

فلنبعد قرنين أو أكثر عن سيف الدولة وعن المتنبى وعن حروب العرب والروم لنشهد حروباً ثانية بين العرب والصليبيين، ميدانها بقعة من فلسطين، فعلنا نهتدى تحت سماء طبرية إلى شاعر أوحى إليه البحيرة غير ما أوحته إلى المتنبى، فنجد في حس الطبيعة في شعره من اللذات الروحية ما لم نجده في أبيات المتنبى.

ذهب سيف الدولة وجاء صلاح الدين، ولئن كان سيف الدولة مانعاً للروم عن التغلغل إلى ديار الشام لقد كان صلاح الدين مانعاً للصليبيين عن مثل هذا التغلغل، فهل رزق شعراء صلاح الدين من الخصائص في حس الطبيعة ما لم يرزق الذين تقدموهم.

يخطر ببالي في هذا المقام شاعر واحد من شعراء صلاح الدين وهو ابن الساعاتي الدمشقي، فماذا أوحى إليه طبرية وبحيرتها؟
لما فتح صلاح الدين طبرية سنة ٥٨٣ قال له ابن الساعاتي:

وما طبرية إلا هدى ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء وسل عنها الليالى والسنينا
فضضت ختامها قسراً ومن ذا يصدُّ الليث أن يلج العريفا
لقد أنكحتمها صمَّ العوالى فكان نتاجها الحرب الزبونا
قست حتى رأت كفواً فلانت وغاية كل قاسٍ أن يلينا

لئن شهدنا فى تغنى المتنبى ببحيرة طبرية حرباً من الحروب،
لقد شهدنا فى تغنى ابن الساعاتى بها عرساً من الأعراس، وقد
كان يستطيع ابن الساعاتى أن يجعل لموج البحيرة ولطيرها
ولرياحها ولجنانها نصيباً من هذا العرس، ولكنه عدل عن
هذا كله ولم نجد فى عرسه من أدوات اللهو والغناء كالعود
والنأى وأشكالها ما نجده فى الأعراس عادةً، وإنما أدواته صمَّ
العوالى. وأخلق بعرسٍ من أدواته السيوف والرماح أن يكون
قاسياً ولكن صلاح الدين حاذق فى تليين القاسين، وحسبنا أن
نخرج من أبيات ابن الساعاتى بهذه النتيجة وحدها، فهى تكاد
تكون خلاصة عهد صلاح الدين!

بحيرة « لوتى »

لقد عرفنا شيئاً يسيراً من خصائص شعر المتنبي وابن الساعاتى فى بحيرة طبرية ، فإذا أردنا أن نعرف ما يفتقر إليه حسن الطبيعة فى شعرهما فلنسرع إلى كاتب غربى زار طبرية .

مر « لوتى » ببقاع الجليل من نصف قرن ، وما زال ينتقل من يافا إلى القدس ومن القدس إلى نابلس ومن نابلس إلى الناصرة حتى وصل إلى طبرية ، فلنصحبه فى خروجه من الناصرة وانحداره إلى طبرية لنعلم كيف نظر إلى الطبيعة .

مر « لوتى » بهذه النواحي كلها ، فرأى بقاعاً خالية صامتة ، هادئة ولا هدوء الموت ، كثيفة ولكن كآبتها لطيفة ، ثم خرقت عينه شيئاً أبعد من الصمت والهدوء والكآبة فرأى الدم الفرنسى الذى جرى على تراب فلسطين أيام الصليبيين وأيام نابليون ! وما انحدر « لوتى » من الناصرة ووقعت عينه على تلال « حطين » حتى نفخ فى هذه التلال روحاً فخلق لها عيوناً لترى بها عظام الماضى ، وخلق لها آذاناً تسمع بها دوى هذا الماضى ،

فترى في أدبه صلاح الدين ينقض على الصليبيين فوق تلال
حطين فيحصدهم حصداً في يوم من أيام الصيف فتأتي على
وقعة حطين سبعة أو ثمانية قرون فترى صلاح الدين بعد هذه
الأحقاب المديدة في فسطاطٍ عظيم يتلقى المغلوبين من الصليبيين
وقد جهدهم العطش فيسقيهم شراباً مثلوجاً ، ثم يذبحهم ذبحاً
فيجري دمهم على الأرض ويروى هذا الدم عشب الأرض حتى
هدأة من الليل !

يخاطب « لوتى » من هذه الذكرى الأليمة فيرجع إلى الطبيعة ،
فيمتدح فيها روحه ، فقد أتت على تلال حطين سبعة قرون وهى
جامدة صامتة ، لم يطاء عشبها إلا الرعاة وأبناء السبيل .
ولكن فلننحدر مع « لوتى » من حطين إلى طبرية ، فما
كادت عينه تقع على بحيرة طبرية حتى أحسَّ بخوف الدنوّ
منها وبانصرافه إلى فكرة دينية ، فإن هذه البقاع تُخطر سيدنا
عيسى ببال الإنسان كما تخطر القبور الخرس موتاهاً بهذا البال .
شرع « لوتى » يخرج من ظواهر الطبيعة على بحيرة طبرية
ليمنع في بواطنها ، شرع ينسى وجهها ليرى جوفها ، والسيد المسيح
أول خاطر يخطر ببال المرء على شواطئ البحيرة ، فأين جماهير

الناس التى كانت تستيقظ من نومها لتسمع مواعظ المسيح ، لقد أحسنت الطبيعة الخضراء بتكفيئها الأرض التى رأت تلك الجماهير .

ثم يترك « لوتى » هذه البواطن كلها ويرجع إلى الظواهر ، فينفخ فيها من روحه ، فلا حركة فى هذه الربوع ولا ضوضاء ، إنك لا تجد فيها إلا سلاماً يشبه سلام أهل الجنة وكآبتهم ، فالطير تغنى ويسمع « لوتى » غناءها ولكن هذا الغناء لا يلبث أن يضيع فى صمت الطبيعة تحت هذه السماء الشاحبة ، سماء التأمل والحلم ، ففى هذه البقعة هدوء لا تستطيع الألفاظ أن تصوره ، هدوء سماوى يستفيض فى مهد النصرانية ، حتى أن « لوتى » نفسه يضطر فى مثل هذا السكون إلى تخفيف صوته من دون إرادة منه كأنه فى معبد من المعابد !

إن ألفاظ الأمل والحبوة التى سمعها البشر قديماً على بحيرة طبرية قد طارت فى سماء ثانية وشاعت فى الأرض لتعزى البشر فى أحقاب طويلة ، فهى ألفاظ ميمية كما ماتت شواطىء هذه البحيرة ، ولكن اللهفة عليها لم تمت فإنها خالدة فى أعماق نفس « لوتى » ، وطبرية على الرغم من كل شيء تبقى وطنه المقدس .

رأى « لوتى » فى طهرية ما رآه المتنبىء ، فقد رأى مرآتها
المطوّقة وسمع تغريد طيرها وتمتع من شميم زهرها ، ولكنه رأى
شيئاً أبعد من هذه الظواهر الجامدة ، فليس من السهل على
أن أخلص فى سطور ما توسع فيه « لوتى » فى صفحات ، إنه
يقدّس الطبيعة تقدّيساً ، ويحييها إحياءً ، فكأنك تشاهد على
شواطئ البحيرة جماعة الصيادين الذين كانوا يحيطون بالسيد
المسيح ويسمعون رسالته وكأنك تسمع السيد المسيح يتكلم على
الحبة وعلى الرحمة وعلى الصفح ، تسمع كلامه كما سمعته القصبات
المتدة على الشواطئ وكما سمعه صخر البحيرة !

عواصف صقلية وسردانية

أما وقد فرغنا من نزھتنا على سواحل ماء هادئ ، ماء البرک
والبحيرات ، فلنسرع إلى عُباب البحر الثائر ، بحر العواصف ،
ولنصحب بعض الذين ركبوا هذا البحر وملکهم الخوف
من هوله !

فلنن فصل مع ابن جبیر عن غرناطة وانركب معه مراكباً للروم
الجنوبيين ولنقلع إلى الإسكندرية ، فماذا أصاب هذا المراكب لما
فارق برّ سردانية ، هذا ابن جبیر يقص علينا هول العواصف :
« عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله
الرياح بقوة كأنه شأيب سهام ، فعظم الخطب واشتد الكرب
وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك
الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبالغه وارتجينا مع الصباح
فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا فجاء النهار وهو يوم الأربعاء
التاسع عشر من ذى القعدة بما هو أشد هولا وأعظم كرباً وزاد
البحر اهتياجاً وارتدت الآفاق سواداً واستشرت الرياح والمطر

عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع فلجىء إلى استعمال الشرع
 الصغار فأخذت الريح أحدها ومزقته وكسرت الخشبة التي ترتبط
 الشرع فيها وهي المعروفة عندهم بالقرية فحينئذ تمكن اليأس من
 النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل وأقمنا
 على تلك الحال النهار كله فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور
 وسرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيراً سريعاً وفي ذلك
 اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية وبتنا تلك الليلة التي هي ليلة
 الخميس التالية لليوم المذكور مترددين بين الرجاء واليأس فلما
 أسفر الصبح نشر الله رحمته وأفشعت السحاب وطاب الهواء
 وأضاءت الشمس وأخذ في السكون البحر فاستبشر الناس وعاد
 الأنس وذهب اليأس .



هذه صورة من صور العاصفة في القرب من سردانية هبت
 عليه وهو منفصل عن غرناطة فلنشهد صورة ثانية للعاصفة التي
 هبت عليه في القرب من صقلية في خلال رجوعه إلى غرناطة :
 « ثم انقلبت الريح غربية وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف

وزجَّتْها ريح عاصف وتقدّمها برق خاطف فأرسلت حاصباً من البرد
صبّته علينا في المركب شأبيب متداركة فارتاعت له النفوس ثم
أسرع انقشاعها وانجلي عن الأنفس ارتياحها وبتنا ليلة الجمعة
مبيت وحشة وطالعنا بها اليأس من مكنه فلما أسفر الصبح وطلع
النهار أبصرنا برّ صقلية لأحماً أمامنا فيا لها بشرى ومسرة ، لو لم
يعد حسرة في كربة ، فأمسينا ليلة السبت وهو أول يوم من دجنبر
ونحن على إدراكه في أقل من ثلثها أو منتصفها ولكل أجل
كتاب وميقات ، وكم أمل تعترض دونه الآفات ، فما كان
إلا كلا ولا حتى ضربت في وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب
وحالت بين الأبصار والارتقاب ، وما زالت تعصف حتى كادت
تنسف وتقصف فحطّ الشراع عن صواريتها واستسلمت النفوس
لباريتها وتركنا بين السفينة ومجريها وتتابعنا غلينا عوارض ديم
حصلنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم وعُباب الموج تتوالى
صدماته وتطفر الأبواب رجفاته فنبذت نفوسنا كل أمنية وتأهّبت
للقاء المنية وقطعنا هذه الليلة البهائم في مصادفة أهوال ومكابدة
أوجال ومقاساة أحوال يالها من أحوال ، ثم أصبحنا يوم السبت

ليوم عصيب أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب ، والأمواج والرياح
تترامى بنا حيث شاءت وقد استسلمنا للقضاء ، وتمسكنا بأسباب
الرجاء ، ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الرياح ولان
متن البحر وأسفر وجه الجو . . . »

عاصفة في بحر الهند

وما علينا بعد أن سلمنا من عواصف صقلية وسردانية لو
اقتحمنا عواصف بحر الهند ، فشهدنا أهوالها مع كاتب من
كتاب الطبيعة في الإفرنجية وهو « برناردن » فلعلنا نستطيع
أن نوازن بين كتبنا وكتبهم في وصف مشاهد قلما نجد لها
آثاراً في أدبنا وهي مشاهد البحار ، قال « برناردن » :
« لما اجتزنا رأس الرجاء الصالح ورأينا مدخل ترعة
« الموزامبيك » عصفت علينا من الجنوب ريح رابعة ، وقد
كانت السماء صافية ، فكنا لا نرى فيها إلا قطعاً صغيرة من
السحاب من لون النحاس ، كأنها بخار لونه بين الأحمر والأصفر ،
فكانت هذه السحب تقطع السماء بسرعة أشد من سرعة الطير ،
ولكن البحر كانت تشقه خمس أو ست موجات مستطيلة عالية
كأنها سلاسل تلال تفصل بعضها عن بعض أودية عريضة
عميقة وقد كان كل تل من هذه التلال المائية ذا طاقين أو ثلاثة
طيقان ، وكانت الرياح تساخ عن رؤوسها ذات الزوايا زبدًا كأنه

عُفْرَة طُبِعَتْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا وَمِنْ هَذَا أَلْوَانُ قَوْسٍ قَزَحٍ وَتَحْمِلُ مِنْهَا
 غُبَاراً أبيض كان يَنْتَشِرُ بِعِيدٍ عَنْهَا فِي أودية هذه التلال ، وهو
 مثل الغبار المنتشر في الشوارع في الصيف ، وأرعب شيء في
 هذا كله أَنَّا كُنَّا نَرَى بَعْضَ رُؤُوسِ هَذِهِ التلال وقد زَجَّتْهَا
 الرِّيحُ بِشِدَّةٍ تَنْبَسِطُ عَلَى شَكْلِ قَبَابٍ عَظِيمَةٍ يَسْتَدِيرُ بَعْضُهَا
 حَوْلَ بَعْضٍ وَهِيَ تَهْدِرُ وَتَزِيدُ ، وَلَوْ وَقَفَ فِي وَجْهَهَا أَضْخَمُ
 مَرْكَبٍ لَانْهَارَ تَحْتَ أَنْقَاضِهَا ، وَقَدْ كَانَتْ حَالَةَ مَرْكَبِنَا وَحَالَةَ
 الْبَحْرِ تَتَضَافِرَانِ عَلَى إِدْخَالِ الْفَرْعِ عَلَيْنَا ، لَقَدْ حَطَّمَتِ الصَّاعِقَةُ
 فِي اللَّيْلِ شِرَاعَنَا الْكَبِيرَ وَذَهَبَتِ الرِّيحُ فِي الصَّبَاحِ بِشِرَاعٍ
 مُؤَخَّرَةٍ الْمَرْكَبِ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا غَيْرُهُ حَتَّى عَجَزَ الْمَرْكَبُ عَنِ السَّيْرِ ،
 فَكَانَتْ الرِّيحُ وَالْأَمْوَاجُ تَقْذِفُ بِهِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ
 وَقَدْ كُنْتُ جَالِساً فِي الْمَوْخَرَةِ مُتَعَلِّقاً بِجِبَالِ الشِّرَاعِ أُحَاوِلُ أَنْ
 آفَ هَذَا الْمَشْهُدَ الْخَفِيفَ وَكُنْتُ إِذَا دَنَا مِنَّا جَبَلٌ مِنْ هَذِهِ
 الْجِبَالِ أَرَى رَأْسَ هَذَا الْجَبَلِ عَلَى بَعْدِ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ قَدَمًا
 مِنْ فَوْقٍ وَلَكِنْ إِذَا مَرَّ صَفْحَ هَذَا الْجَبَلِ الْمَفْرَعِ تَحْتَ مَرْكَبِنَا
 مَالَ بِهِ مَيْلاً شَدِيداً فَتَمْنَعُ خَشَبُ الشَّرْعِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى
 مَنْتَصَفِهَا وَيُوشِكُ الْمَرْكَبُ أَنْ يَنْقَلِبَ بِنَا رَأْساً عَلَى عَقْبٍ ، وَإِذَا

علا المركب رأس الموج انتصب ثم انقلب فجأة على منجدره
المعاكس في خطر لا يقل عن الخطر الأوّل والموج يمرُّ من
تحتّه مسرعاً إسراع سدود الماء وكأنّه شليل من زبد .

ولم يستطع واحد منّا أن يعزّي صديقاً أو أن يعزّيه صديق
فإنّ الريح بلغت من الشدة كل مبلغ فلم يقدر الناس على سماع
الكلام ولو كان وشوشة ، فكان الهواء يحمل الصوت ولا يمكننا
من أن نسمع غير صفيّر حادٍ للخشب والجبال وضجيج خشن
للأمواج وكأنّ هذا الصفيّر وهذا الضجيج زئير الوحوش الضارية
وبقينا على هذه الحال بين الحياة والموت من مطلع الشمس
حتى العصر ! »



هذان مشهدان من مشاهد العواصف في البحار تكاد تكون
أمور كثيرة منها واحدة متشابهة ، فلم نجد فرقاً كبيراً في وصف
هول البحر ، فالأمواج في بحر صقلية وبحر الهند مثل الجبال
والريح فيهما تكسر خشب الشرع ، والنفوس فيهما من شدة
العاصفة بين اليأس والرجاء وبين الموت والحياة ، ولكن الألوان
والحركات والأصوات في عاصفة بحر الهند أكثر منها في عاصفة

بحر صقلية ، فالسحب في عاصفة بحر الهند لونها مثل النحاس ،
وسرعتها أشد من سرعة الطير والأمواج فيها تنطبع عليها ألوان
قوس قزح والغبار فيها لونه أبيض وللخشب والحبال صفيح حاد
وللأمواج ضجيج خشن ، فقد كانت عين « برناردن » في بحر
الهند أنفذ من عين ابن جبير في بحر صقلية ، وكانت أذنه أرق
فاستطاعت هذه الأذن أن تسمع من الأصوات ما لم تسمعه أذن
ابن جبير واستطاعت هذه العين أن ترى من الألوان والحركات
ما لم تره عين رحاتنا ، والذي نشعر به في هذا الوصف أن
اللغة العربية إذا شاءت أن تعبر عن أصوات الريح وجدت لها
أفعالا تدلُّ على هذه المعاني فالريح عاصف ، أمّا لغة الإفرنجية فقد
لجأت إلى صفات عامة ، فالريح في عاصفة « برناردن » تارة
مخيفة وتارة شديدة ، والخوف والشدّة صفات عامة تطلق على كل
شيء مخيف أو شديد أما العصف فإنه خاص بالريح وفي هذا
نوع من تحديد المعاني .

إله العواصف

وقد بلغ من عناية الإفرنجية بالطبيعة وحرصهم على إحياء مشاهدتها أن جعلوا لها في ثمرات قرائنهم أشباحاً لها هيات خاصة وألوان خاصة ولحى خاصة وشعر خاص ، فمن آثار الشاعر البرتغالى المشهور « كامونيس » ملحمة « اللوزياد » فقد تغنى برحلات البحار « فاسكودى غاما » وخلق فى أغانيه روح الأساطير .

تصور هذا الشاعر أن لرأس الرجاء الصالح حارساً وهو « أداماستور » له طيف عظيم ، هيأته مهددة ، وشكله موحش وسجنته صفراء ولحيته كثيفة وشعره أغبر وشفقاه سوداوان وعيناه تدوران تحت الأهداب السود وهما تبصان ، فلمّا رأى هذا الحارس البحار « فاسكو دى غاما » يفتح البحر هجم عليه ليحول دون مضيه فى سبيله وخاطب جماعته بهذا الكلام :

« أيها الشعب ! يا أجراً الشعوب ! أفلم تبق حواجز فى وجوهكم تقف بكم ! يا رجال الحرب الذين لا يغلبون ! يا رجال

البحر الذين لا يتعبون ! إنكم تجسرون على ركوب هذه البحار
المديدة التي خلقت حارساً لها على وجه الدهر ، هذه البحار التي
لم ينتهك حرمتها في يوم من الأيام مركب غريب ، وأنا نفسي
حرام على ركوبها !

إنكم تنتزعون من الطبيعة السرّ الذي لم يستطع العلم ولا
استطاعت العبقرية انتزاعه حتى اليوم ! أيّها الميتون الجريئون !
اعلموا بالمصائب التي ستصيبكم على هذه السواحل العاصفة وعلى
هذه البقاع البعيدة .

ويل للمركب الذي يجراً على انتهاك الحرمة ليمشي على آثاركم !
إني سأنقض عليه ، وسأسلح الرياح والعواصف ! ويل لأول
أسطول يقتحم ساطاني بعدكم ! فإذا ظهر هذا الأسطول على وجه
بحارى فلا يلبث أن يُضرب ويشت ويحطم بين الأمواج !
وسيهلك مع هذا الأسطول البحّار الكافر الذي رأى في
خلال جولاته القائمة منزلي المقدّس ودلّسكم علىّ ، وليست هذه
العقوبة الخفيفة إلا أولى المصائب التي يُعدها المستقبل لكم ولو
كنت أعرف أن أقرأ في كتاب القضاء والقدر لجاتكم كل
سنة بنكبات جديدة ، وسيكون الموت أهون مصائبكم ! »



وكما قد سوا البحار فإنهم قد سوا كل جزء من أجزاء الطبيعة
 فإذا قلع الخطّاب سنديانة من السنديان نهض الشاعر فرثاها
 وعبر لها عن اهتزاز نفسه من ضربة فأس هذا الخطّاب وصور
 لها الحزن العميق الذي شاع في الغابة ، حزن الطير وحزن الماء .
 أمّا الطير فقد حلّقت بعد قلع السنديانة في السماء كأنّها في
 أجوازها سحابة صفراء وملأت الجوّ بأغاريد المشجّة ، وأمّا
 الماء الحزن فقد جمد في الينابيع وكادت رؤس الجبال تزلزل
 زلزالها وأخذت الريح تردّد أصداء التأوهات العميقة الصادرة
 عن جوف الأرض !



من كل ما تقدّم يتبيّن لنا أن للطبيعة في أدب الإفرنجية مقاماً
 جليلاً ، وقد بلغ بأحد أدبائهم وهو « روسو » أن حمل أهل
 عصره على محبة الطبيعة فصور لهم فتنة طلوع الشمس وصفاء
 ليالى الصيف وملاذّ الحقول وأسرار الغابات الصامتة الكثيفة ،
 صور لهم كل هذا العالم ، عالم الضياء والورق والزهر والطير
 والنسيم . وإذا كان أدب العرب لم يخلُ على تعاقب العصور

من حسّ الطبيعة فقد رأينا بعد مقابلات يسيرة بين حس الطبيعة في أدبنا وبين حس الطبيعة في أدب الإفرنجية أن أدباء الإفرنجية اتصلوا بالطبيعة بأرواحهم وحواسهم فخلقوا لها قلباً يشعر شعورهم وعيناً تبكي بكاءهم وصدرأ يفرح فرحهم، فشاطروها آلامها وشاطرتهم آلامهم وإذا كان في بعض شعرنا شيء من أشباه هذه النزعات، إذا دعا بعض شعرائنا الحمام ليقاسموه الهموم أو عاتبوا شجر الخابور لأنه مورك لم يجزع على ابن طريف، فهذا قليل أو أقل من القليل. لقد كانت الطبيعة في أدبنا لذّة الحس ولم تكن لذّة الروح، فلم يتضافر ضياء الشمس وورق الشجر وهديل الطير وهبّات الذسيم وموج البحر على تعويدنا لذّة الروح، فإذا ألهمتنا الطبيعة بعض صور مادية فإن عواطفنا وشعورنا لا تزال جامدة أمام هذه الطبيعة. ينظر الإفرنجية إلى الطبيعة ولكنهم لا يكتفون بظواهرها، فهم يريدون أن يتغلغلوا إلى بواطنها وأن ينفخوا فيها شيئاً من الروح، فما هذا الصمت وما هذا الهدوء وما هذه السكّابة التي رآها «لوتي» في الجليل إلا نفخة من هذه النفخات، فالطبيعة في أدبهم مثلها كمثّل الأحياء فلها مزاج مثل أمزجتهم، فطوراً نراها جذلة وطوراً نراها كثيبة،

وحيثما تكون الكتابة لطيفة وحيثما تكون شديدة ، فكتابة
الجميل مثلا لا يفرحها رونق الأزاهير ولا موسيقى الطير !
فإذا احتاجت الطبيعة في أدبنا إلى شيء فإنها تحتاج إلى هذه
الحياة حتى تصبح مثل الأحياء فتعيش عيشتهم وتشعر شعورهم
كما يعيش القصب والصخر في أدب « لوتى » وكما يعيش الموج
في أدب « لامارتين » .

١

الأدب النفسى

الحبّ فى الجاهلية

لقد أدّى حسّ الطبيعة فى أدبنا إلى ما أدى إليه فى أدب الإفرنجية ، فى العصر الذى غلب على أدب الإفرنجية وهو عصر «روسو» مات الأدب النفسى ، لقد كان الرجل قبل هذا العصر موضوع الأدب ، فكان الأدباء ينظرون إليه من بواطنه ، أما فى عصر «روسو» فقد انضمّ إلى موضوع الرجل موضوع الطبيعة ، فأصبح الأدباء لا ينظرون إلى الرجل إلّا كما ينظرون إلى الطبيعة ، أى من ظواهره ، فالأدب فى ذلك العصر خرج عن أن يكون نفسياً ، فإنه إذا شاء أن يصف النفس نظر إلى الجسم . هذه المرأة شقراء ، وهذه سمراء . . . وما شابه ذلك ، فنشأ عن هذا كله أن الذى يحس قلمه على وصف الأشكال الظاهرة وعلى الانفعالات الدقيقة التى تطبعها فى النفس إنما هو رجل تغلب قوة إحساسه على قوة عقله .

لقد جرى شبه هذا الشيء فى بدء أدبنا ، فإذا دققنا فى ناحية واحدة من نواحي النفس فى شعرنا الجاهلى وهى ناحية الحب وجدنا أن الأنظار فيه تقف على الظواهر أكثر من وقوفها على البواطن ، فهذه أم الحويرث وأم الرباب فى شعر امرئ القيس ، فإذا قامت فاحت ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره ، فامرؤ القيس لا ينظر إلى عرف النفس وإنما ينظر إلى عرف الجسم ، وإذا دخل خدر عنيزة فلا يهتم منها إلا العناق والشم والتقبيل ، وفى هذا مجامع لهوه ، وإذا تلفتنا إلى صور عشيقاته وجدنا هذه العشيقات على الصور الآتية : كل عشيقة منها دقيقة الخصر ، ضامرة البطن غير عظيמתه ، ولا مسترخيته ، صدرها برّاق اللون ، متلألئ الصفاء تلالؤ المرأة ، صافية اللون نقيته مثل الدرة الفريدة التى تضمها الصدفة ، خدّها أسيل ، وعينها مثل عين الظبية المطفل ، وعنقها مثل عنق الظبي وشعرها تام أسود فاحم كثير مثل العناقيد وقنوان النخل وكشحها لطيف وساقها صافية اللون ، دقاق المسك فوق فراشها الذى تبيت عليه وحياتها فى دعة ونعمة وخفض ، بنانها رخص لين ناعم غير غليظ ولا كز ، تضئ بنور وجهها ظلام الليل

فكانها مصباح راهب منقطع عن الناس !

هذه هي الأشكال الظاهرة التي تقف عليها عين امرئ القيس في المرأة ، فلا ترى هذه العين إلا صفات الجسم أما صفات الروح فلا تعرف عنها شيئاً ، وإذا امتدت هذه العين إلى نفس العشيقة لتكشف عن دقائقها فلا تهتدي من هذه الدقائق إلا إلى الشيء القليل :

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
وإذا انتقلنا من شعر امرئ القيس إلى شعر طرفة فإننا نجد
في حبه ما وجدناه في حب امرئ القيس ، إنه لا ينظر في حبيبته
إلا إلى ظواهرها ، إلى ثغر ألمى الشفتين كأنه أقحوان خرج
نوره في دعص ندي وقد سقى هذا الثغر شعاع الشمس ، وإلى
وجه نقي اللون لم يتشجع ولم يتغضض كأنه الشمس ألقت عليه
رداءها ، ونجد ندماً طرفه بيضاً كالنجوم تتلألأ ألوانهم
وتشرق وجوههم ، ونجد المغنية التي تأتيهم وهي لابسة ثوباً
مصبوغاً بالزعفران ناعمة اللحم ، رقيقة الجلد ، صافية اللون !
وكذلك النساء في معلقة زهير عليهن دلال الإنسان الطيب
العيش ، فيهن موضع لهو للمتأنق الحسن المنظر ، وفيهن مناظر

معجبة لعين الناظر المتتبع محاسنهنّ وسمات جمالهنّ .

ونجد المرأة فى معلقة عمرو بن كلثوم لها ذراعان ممتلئان لحماً
كذراعى ناقةٍ طويلة العنق ولها ثدى مثل حقٍ من عاج بياضاً
واستدارة ، وهى محرّزة من أكف اللامسين ، ولها ورك يضيق
الباب عنها لعظمها وضخمها وامتلأها باللحم ولها ساقان
كاسطوانتين من عاج أو رخام بياضاً وضخماً .

ونجد حبيبة عنتره لها ثغرزو حدّة ، واضح لذيد المطعم ،
عذب المقبل ، طيب نكهتها مثل طيب ريح المسك أو مثل
طيب ريح روضة ناضرة ، تصبح وتمسى فوق فراش وطىء .

ولا أرى بى حاجة إلى التقصى فى هذا النوع من الحب ،
فإن الحب فى شعر الجاهلية يكاد يكون واحد الأشكال والصفات ،
فالشعراء لا ينظرون فى معشوقاتهم إلاّ إلى ظواهر أجسامهنّ أما
بواطن النفوس فليس لهم مداخل عليها ، وإذا تتبعنا المرأة فى
شعر الشعراء الذين غلب الحب على شعرهم مثل المرقش الأكبر
أو عبدالله بن العجلان أو عروة بن حزام أو غيرهم ، فلا نجد لهذه
المرأة إلاّ صفات ظاهرة ، أما الصفات الباطنة فقد أشكلت على
عيون الشعراء .

٢

الحب بعد الجاهلية

وما أظن أن الأمر جرى على هذا الشكل في صدر الإسلام وعصر بني أمية ، ومن المتعذر على " في مقام ضيق مثل هذا المقام أن أتبع الشعراء الذين انصرفت عيونهم بعض الانصراف عن مناظر الطبيعة ولم يعد لحس " الطبيعة الحل الأول في شعرهم ، وعلى الرغم من هذا الطور الجديد الذي دخل فيه شعراء النسيب قد يحتوى شعرهم على وصف الأجسام ولكنه يحتوى أيضاً على صفات النفوس ، فهذا جميل بن معمر قلما تغلب على شعره الألفاظ التي تدل على الأشكال الظاهرة مثل ضمور البطن وصفاء اللون وسواد الشعر ولطافة الكشح وتقاوة الوجه وغير ذلك من الصفات كما غلبت على هذا الشعر الألفاظ التي تدل على المعاني النفسية مثل النسيان والذكر والمنى والوصال والهجر وحفظ الغيب والتجلد والصبابة والتفكير والوعد والهوى والوجد والالتقاء والتفرق وأمثال هذه الألفاظ المجردة ، فلم يكتف شعراء النسيب في هذا العصر الجديد بالأشكال الظاهرة ولكنهم تغلغلوا إلى

النفوس بعض التغافل وأفصحوا عن بواطنها أكثر من إفصاحهم عن ظواهرها ، ولئن لم نجد عمق العواطف في شعورهم فإننا نجد هذه العواطف على كل حال ، فهي ظاهرة بيّنة ، وإذا قابلنا بين شعر جاهلي في النسيب وبين شعر أموي تبين لنا الفرق بينهما في هذا المعنى ، وليس من الضروري أن أسترسل في ضرب الأمثال وإنما ألتجأ إلى أيّ مثل كان : لَمَّا نذر أهل بثينة دم جميل وأهدره السلطان لهم ضاقت الدنيا به فكان يصعد بالليل على قور رمل يتنسم الريح من نحو حى بثينة ويقول :

أياريح الشمال أما تريني أهيم وأنتى بادی الفحول
هبي لي نسمة من ریحِ بثنٍ ومنى بالهبوب إلى جميل
وقولى يا بثينة حسب نفسي قليلك أو أقل من القليل

فليس في هذه الأبيات لأشكال الجسم الظاهرة من النسيب ما للعاطفة النفسية ، لقد رقت العاطفة بعض الرقة وصار النسيب حديث النفس بعد أن كان حديث الجسم ؛ ومن أراد أن يطالع على حقيقة هذا الأمر فليرجع إلى شعر جميل وإخوانه لأن المقام يضيق عن اختيار قصائد لهم في هذا الباب ، إلا أن ذكر أبيات

قليلة يجعل لنا رأياً في هذا الشعر من ناحية اشتماله على الصفات
النفسية في الحب .

لها في سواد القلب بالحب منعة هي الموت أو كادت على الموت تشرف
وما ذكرت لك النفس يا بثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتني زفرة واستكانة وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسي حديثاً لحلة أسر به إلا حديثك أطرف

فإذا كنا لا نجد في هذا النحو من الشعر العواطف العميقة
الدقيقة التي نجدها في الشعر الغربي فإننا نجد فيه عواطف بسيطة
حلت محلّ الأشكال الظاهرة التي كانت مستفيضة في
الشعر الجاهلي .

وكذلك الأمر في شعر عمر بن أبي ربيعة فإن الألفاظ المجردة
كثيرة في شعره مثل حاجة النفس وعزاء الفؤاد والتجريب
والصرم والوصال والحديث والملاطفة وتصابي القلب والسحر
والملام ونجوى الصدر والوساوس وهذا نموذج من حبه الروحي .
أغرّك أنى عصيت الملا م منك وأن هوانا هواك !
وأن لا أرى لذة في الحياة تقرّ بها العين حتى أراك
فكان من الذنب لي عندكم مكارمتي واتباعى رضاك

فليت الذي لام في حبكم وفي أن تزارى بقرن وفاق
 هموم الحياة وأسقامها وإن كان حثف جهيد فذاك !
 فهذا الشعر يعرض علينا صورة من الطور الذي دخل فيه
 الحب في عصر بني أمية وقد تتفاوت منازل الشعراء في هذا المجال ،
 وليس هذا الموضع بموضع موازنة بينهم أو بموضع نقد وإنما الغاية
 كلها التنبيه على أن حسن الطبيعة قد ضعف أثره في الشعر
 الأموي بعد الجاهلية فانتقل الحب من الأشكال الظاهرة إلى
 الأشكال الباطنة ، فلم يعد لألوان الجسم وأشكاله في الشعر
 المقام الذي أصبح لألوان النفس وأشكالها ، وقد يكون لكل
 شاعر من شعراء النسيب خصائص في الحب النفسي ، فعمربن
 أبي ربيعة مشهور في هذا الباب بالحياة التي نفخها في شعره
 روح القصص .

٣

بخلاء الجاحظ وبخيل «مولير»

وإذا بعدنا قليلاً عن الشعراء الذين تقدم ذكرهم وجاورنا
العصر الذى استفاضت فيه الفلسفة واختمرت فى النفوس فإننا
نجد للتحليلات النفسية فى الشعر أثراً أبلغ ، فإن قول المتنبي :

إذا غدرت حسناء وفّت بعهدها فمن عهدها أن لا يدوم لها عهد
وإن عشقت كانت أشد صباية وإن فركت فاذهب فما فركتها قصد
وإن حققت لم يبق فى قلبها رضى وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء وربما يضل بها الهادى ويخفى بها الرشيد

يشتمل على شىء من كشف الغطاء عن نفوس النساء، على أن
الجمال الذى يتسنى لنا فيه النظر إلى بواطن النفوس إنما هو مجال
النثر لأن مجال الشعر فى هذا المعنى ضيق .

فلنترك الآن الشعر ولنلتمس إلى النثر حيث نستطيع أن
نقابل بين نظرة العميون فى الجاهلية إلى ظواهر الطبيعة وبين
نظرتها فى عصر العباس إلى بواطن النفوس ، ثم نستطيع أن
نقابل بين نظرتنا إلى هذه البواطن وبين نظرة الإفرنجة إليها .

أعمد في هذا الباب إلى كاتبين كتبوا في موضوع واحد وهما :
الجاحظ و « مولير » فالأول كتابه : « البخلاء » مشهور ،
والثاني كتابه : « البخيل » معروف .

لم يبعد الجاحظ في أدبه عن مشاهد الحياة الخاصة ، فكانه
دخل في « بخلائه » دور طائفة من الناس ، فعاين ما كلهم
ومشاربهم وملابسهم ، وخالطهم في تدبير منازلهم فلم يفته شيء
من أساليبهم في الطبخ والأكل واللبس والعلاج والاستصباح
والاستحمام وما شابه ذلك ، وكأنه شاهد كيف يتداوون في
السعال بماء النخالة وكيف يطبخون الشاة فلا يضيعون جزءاً
من أجزائها وكيف يأكلون بالبارجين ويقطعون بالسكين
ويلزمون عند الطعام السكينة ويتركون الخوض ، وعرف وجوههم
في الكراء والشرء ونحوهما ، فكانت المطابخ والموائد والأواني
والمواعين مادة أدبه ، فلم يتقزز في هذا الأدب من أن يملأ أنفه
من روائح اللحم والتوابل والسمن والخل والثوم أو من روائح
السكباج والطبايح وغير ذلك .

ولست هذه الأمور وحدها هي التي عاينها ولاحظها ولكن
الاستقصاء في ذكرها أمر عسير فالجاحظ قد دخل من كل باب

وجرى مع كل ريح ولكنه لم يدخل من هذه الأبواب كلها إلا
ليخرج منها بحجة طريفة أو بحيلة لطيفة أو بنادرة عجيبة .
حاول الجاحظ في « بخلائه » التنبية على عيب مشهور ،
وهو البخل ، فبسط لنا نماذج كثيرة من البخلاء وبين كيف
يأكلون وكيف يشربون وكيف يلبسون وكيف يكتنزون إلى
غير ذلك من الصور الظاهرة التي تضحك القارىء قبل كل
شيء حتى يكاد هذا الإضحاك يصرفه عن معرفة خصائص
البخل .

من طبائع بخيل الجاحظ أنه يلاحظ اللقمة ، فإذا انتخب
أكيل هذا البخيل أكلته واختار كل منهوم فيه ومفتون به
استلب البخيل من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي والحداد
العقاب ، فقد صور الجاحظ حركات العين كيف تلاحظ اللقمة
وحركات اليد كيف تستلب هذه اللقمة من الأكيل أو كيف
تكتفها كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً .

هذه صورة ظاهرة تدلنا على نوع واحد من الحركات وهي
حركات العين واليد أو أمثالهما ولكنها هل تدلنا على حركات
النفس ، فهل كان بخيل الجاحظ عالمياً غير خاص ببلد أو بعصر ،

وإنما هو بخيل كل العصور وكل البلدان ، قد طبع على ما يطبع عليه البخيل في أي عصر كان وفي أي بلد كان ؟ هذا سؤال يسهل الجواب عنه إذا قارنا بين وصفنا لعيوب النفس وأمراضها وبين وصف الإفرنجة لهذه العيوب والأمراض .

فلنقابل بين بخلاء الجاحظ وبين بخيل « مولير » دون شيء من التوسع .

لقد ثبت « مولير » في بخيله نموذج البخيل الحقيقي ، فلم تقتصر روايته على تصوير ما يساور صاحب المال من قلق ، ولا كتبها صورت البخيل في كل ما يشتمل عليه من سخرية وكرهية وفضاعة ، فلم يعد بخيل « مولير » البخيل القديم الذي يكنز ذهبه ، وإنما هو بخيل متمول ، يقرض ماله ويفرط في الربا ، فهو مُرَبٍّ عسرى يثمر ماله حتى يكاد حب الربح ينسيه واجب الأدب .

أما الجاحظ فلم يظهر في بخلائه آثار السخرية والكرهية والفضاعة ، ومعنى هذا أنه لم يصور البخلاء في صور تجعلهم ضحكة للناس أو في صور تبغضهم إلى الناس أو في صور يستفزعهم فيها الناس ، فقد كان همه الإضحك قبل كل شيء ،

حتى أنه اعترف للقارئ بأن كتابه لا يصور له كل شيء ولا يأتي له على كنهه وعلى حدوده وعلى حقائقه ، فكان يحكى بعض الحكايات ويؤدلو أن القارئ رأى الحكاية بعينه لأن بعض هذه الحكايات لا تطيب جداً إلا إذا رآها بعينه ، فلم يكن بخيله عالمياً ، أى بخيل كل العصور وكل البلدان ، فقد أهمل تصوير قلق البخيل وتصوير ما يولده في الناس من سخرية وكراهية وفضاعة ، فاذا كنّا نضحك من بخلاء الجاحظ فالذى يضحكنا إنما هو ظاهر البخيل ذاته لا صورة البخيل ولا حركات نفسه .

وإذا أردت أن تعرف صورة البخيل الحقيقي ، بخيل كل العصور وكل البلدان ، فانظر إلى بخيل « مولير » فهو لا يريد أن يرى خادم ابنه منصوباً في داره كالرمح يعاين ما يقع في هذه الدار وهو لا يريد أن يرى أمامه جاسوساً تشاهد عيناه الملعونتان أعماله وتأخذان ما يملكه وتدوران في كل جهة لعلهما تريان شيئاً يمكن استلابه .

هذه صورة البخيل الحقيقي ، إنه يخاف كل شيء ويسىء الظن بكل شيء فهو دائماً في قلق واضطراب ، إن خرج الخادم

من عنده فتشّه ، وظن أنه قد سرق له شيئاً ، مرة يفتش يده اليمنى ومرة يده اليسرى ، ومرة يفتش اليدين ثم يفتش القدمين ، ثم يفتش الجيوب إلى آخر هذه الحركات التي تدل على حركات نفس البخيل ، فهو يعتقد أن كل البشر يسرقون ماله .

فالجاحظ قد تغلغل إلى غايات نفس البخيل البعيدة ، مثل تغلغل « مولير » وعرف مراميها الدقيقة مثل معرفة « مولير » ولكنه لم يعرض علينا هذا القلق الذي يغالب البخيل وهذه الشقاوة الباطنة التي يشقها في الخوف على ماله فهو يخاف كل شيء حتى هذه الصناديق التي يكنز فيها ماله فلا يأمنها ولا يطمئن إليها لأنها قد تسرق له المال الذي استودعها إياه ، فهو يكتّم أهله ماله ويظهر لهم الفقر حتى لا يطمعوا فيه فهم في نظره أعداء له وهم خونة يخونونه ، ويكتّم الناس ماله حتى لا يهجموا عليه وحتى لا يقتلوه ولا يسلبوه .

قد تتفق العبقريتان : عبقرية العرب وعبقرية الإفرنجية في وصف بعض حالات ظاهرة ، فبخيل « مولير » لا يريد أن يرى شيئاً من الإسراف والتبذير فإذا رأى على ابنه ثياباً فاخرة لأمه ووبخه ، ومثل هذه الحالات الظاهرة كثيراً ما نجد لها في

بجلاء الجاحظ وربما كان الجاحظ أوفر صوراً من « مولير » في هذا المعنى .

ولكن الجاحظ لم يتفنن في الكلام على حركات البواطن تفننه في الكلام على حركات الظواهر ، فإن بخيل « مولير » إذا سمع في بستانه كلباً ينبح سبق إلى ذهنه أن هذا الكلب ينبح لأنه رأى لصوصاً هجموا على الدار ليسرقوا ما فيها ، فهو ذو فكر ثابت لا يتغير ، إنه خائف على ماله ، مشغول البال بهذا المال . أجل ، قد تتفق العبقريتان في تصوير الحالات الظاهرة ، فمن جملة هذه الحالات أن بخيل « مولير » وبجلاء الجاحظ لا يعرفون كلمة « خذ » ولكنهم يعرفون كلمة « هات » ، ومن جملة هذه الحالات أنهم يخافون على أثاث الدور من أن تمتد إليه الأيدي ويحذرون الناس من فرك الثياب حتى لا تتفزز ، ومن مسح الأواني حتى لا تتكسر ، ولا يريدون أن يكثر الضيف من الأكل ، فالإنسان يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل . هذه حكمة يريد بخيل « مولير » أن يكتبها بمداد من ذهب على مدخنته .

قد تتفق العبقريتان في هذا كله ولكن الاختلاف يشتد في

تصوير حركات النفس وفي تصوير قلقها واضطرابها وجنونها ؛
فإن بخيل « مولير » لما سُرِق ماله طار عقله فأخذ يصرخ هذه
الصرخات الخالدة في تصوير حالة البخيل النفسية : يا للسارق !
يا للقاتل ! يا للعدل ! لقد ضعت ! لقد قتلت ! لقد خنقوني !
لقد سرقوا مالي ! أين السارق ! أين مكنه ! إلى أين أركض !
أهو هنا ! أهو هناك ! ويبلغ منه الجنون مبالغاً يظن فيه أنه سرق
نفسه ، فيقبض على ذراعيه ، ثم يعرف هذا فيصرخ : اضطرب
فكرى ! إني أجهل من أنا ! وأجهل أين أنا ! وأجهل ما أعمل !
إلى آخر هذه الصفحة الخالدة في رواية « مولير » .

قد يصعب على أن أخصّ في سطور آيات الجاحظ في بخلائه
وآيات « مولير » في بخيله فما قصدى الاستقصاء في هذا الباب
ولا غايتي الموازنة بين الكاتبين وإنما تصديت للموضوع من وجه
واحد ، فقد أحببت أن أبين الفرق بين الأديين ، أدب العرب
وأدب الإفرنجية من حيث تصوير ظواهر النفس وبواطنها .

لقد نفذ « مولير » سخرية البشر ، فصور على المسرح
عيوب الناس وكان يؤله أن يعيبيه بأنه في التصاوير التي صورها
كان يمر بباله واحد من أهل عصره ، فإن غايته كانت تصوير

الأخلاق دون الالتفات إلى رجل بعينه ، إن الصور التي عرضها إنما هي صور خيالية لا تمثل رجالاً حقيقيين ، أمّا الجاحظ فقد التقط في بخلائه أحاديث أصحابه وأحاديث ما رآه بعينه ، فبخلأوه منهم الصديق والوليّ ومنهم المستور والمتهمك ، وكان يؤلم «مولير» أن يرى وجه شبه بين صورة يعرضها على المسرح وبين صورة رجل من عصره لأن غايته كانت تمثيل العيوب بوجه عام وخاصة عيوب عصره وعلى هذا كان يتعذر عليه أن يصوّر صورة من دون أن يجد لها في عصره رجلاً توافقه .

فالجاحظ لم تكن غايته تصوير البخل بوجه عام فبخیل الجاحظ لم يكن عالمياً ، وقد يجمع هذا البخیل طائفة من صفات بخیل كل العصور وكل البلدان ولكننا لا نرى عليه آثار القلق وشغل البال ، من هذا كله يتبين لنا أننا نحتمل في أدبنا بالظواهر وأن الإفرنجية لا يكتفون بالظواهر وحدها فهم يتسربون في البواطن ، وقد نبرع في الاهتمام بالظواهر براعة خاصة فإن كل حكاية من حكايات بخلاء الجاحظ قد تكون موضوع رواية في ذهن كاتب من كتاب الإفرنجية ، فقد أتقن التدقيق في ظواهر البخیل سواء أكان هذا البخیل يطبخ شاة أم يؤجر داراً أم يوصى ولداً أم يطعم ضيفاً أم

يسرج مصباحاً ، ولكنه هل أتقن التدقيق في بواطن البخيل ؛
 لاشك في أنه عرف أسرار البخلاء وعرف دخائلهم ولكنه هل
 صورّ حركات هذه الدخائل ، فإذا أعوز أدبنا شيء فإنما يعوزه
 هذا الطراز من التعمق الفلسفي الذي يكشف الغطاء عن حركات
 النفس بعد كشف هذا الغطاء عن حركات اليد والعين !

٤

تصوير الجاحظ للحسد

ولئن لم يتغلغل الجاحظ إلى أعماق أحد أمراض النفس وهو البخل ولم يكشف الغطاء عن حركات هذا المرض الباطنة وإنما اقتصر على حركاته الظاهرة فقد تعمق في الكشف عن أسرار مرض آخر وهو الحسد ، فحلّ عناصره وفكّ أجزاءه ثم وصف ظواهره وبواطنه بوصف معالجته ، عرّف الجاحظ هذا الداء على الوجه الآتي :

« والحسد ، أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض وأمر متعذر ، وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء . . . »
وبعد أن فرغ من تعريف هذا المرض الذي ينهك الجسد ، أمعن في تصوير نفس الحاسد ، فعرض هذه النفس في أوضح معارضها وبين الأمور التي يشغل بها الحاسد نفسه :

« قال بعض الناس لجلسائه : أيُّ الناس أقلّ غفلة ، فقال بعضهم : صاحب ليل إنما همّه أن يصبح . فقال : إنه الكذا

وليس بكذا . وقال بعضهم : المسافر إنما همه أن يقطع سفره ، فقال : إنه لكذا وليس بكذا . فقالوا له : فأخبرنا بأقل الناس غفلة ، فقال : الحاسد إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبداً » .

لقد وضح لنا الجاحظ بهذا الكلام حقيقة صورة الحاسد ، فكل هم الحاسد أن ينزع الله من ذي نعمة نعمة نعمة .

ثم لجأ إلى تكميم هذه التعريفات الوجيزة ببيان صفات الحاسد ، مستعيناً بكلام بعض الأعراب : « نفس دائم ، وقلب هائم وحزن لازم » .

هذه بواطن الحاسد ، أما ظواهره فلم يغفل عنها الجاحظ ، فقد قال :

« وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه وإخفاء سلامه والإقبال على غيرك والإعراض عنك والاشتغال لحديثك والخلاف لرأيك » .

ثم أمعن في وصف هذا الداء الذي يغلب على ظاهر صاحبه وباطنه ف ضرب الأمثال الناطقة :

« وأنا أقول حقاً ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه

ولا قدر على تشحينه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه
 فيستعبده ويستميله ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على
 صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن
 الرجل على زوجته ومن الأسر على الأسير ، وكان ابن الزبير
 بالصبر موصوفاً وبالدهاء معروفاً وبالعقل موسوماً وبالمداواة متهوماً
 فأظهر بلسانه حسداً كان واظب عليه أربعين سنة لبني هاشم
 فما اتسع قلبه لكتمانه ولا صبر على اكتتامه لما طال في قلبه
 طيلة أظهوره وأعلنه مع صبره على المكاره وحمله نفسه على خسفها
 وقلة اكترائه والتفاتيه لأحجار الحجاب التي تمر عليه فتذهب
 بطائفة من قومه ما يلتفت إليها ، حدثت بذلك عن علي بن
 مسهر ، عن الأعمش عن صالح بن حباب ، عن سعيد بن جبير
 قال : قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير قال : أنت
 الذي تؤنبنني ، قال : نعم ، لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول ليس بمؤمن من بات شبعاناً وجاره طاو ، فقال له ابن
 الزبير : لمن قلت ذلك ، إني لأكتم بغضكم أهل البيت منذ
 أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهم عسيبا نخل
 ثم قال لابن الزبير : نعم ، فليبلغ ذاك منك ما عرفتكم ، ولقد

أجلت الرأي ظهراً لبطن وفكرت في جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت خزة في قلبه فلم يبد لها وفروع بنى هاشم حول الحرم باسقة وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسهم من أعاليها عامرة ، وبحورها بأوراق العباد زاخرة وأنجمها بالهدى زاهرة فلما خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكن في نفسه ، والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتي الموت على رمتيه ، وما استقبل ابن عباس بذلك إلا لما رأى من تقدمه على أهل القدم ونظر إليه وقد أطاف به أهل الحرم فأوسعهم حكماً وثقبوا منه رأياً وفهماً وسبقهم علماً وحلماً .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الأمثال الناطقة ، فقد أخذ في بيان أساليب الحاسد في سيرته مع الناس :

« ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنياً أن يوبخه على المال فيقول : جمعه حراماً ومنعه أيتاماً وغلب عليه محاييج أقاربه فتركهم له خصماً ، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر فقال ، لقد كفروا معروفاً وأظهروا في الناس ذمك ، ليس أمثالهم يوصلون ؛ فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد لهم خصماً

أعانه عليهم ظلماً ، وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه أو تفضل عليه بمعروف كفره أو دعاه إلى نصير خذله وإن حضر مدحه ذمّه وإن سئل عنه همزه وإن كانت عنده شهادة كتمها وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، يجب أن يُعاد ولا يعود ويرى عليه القعود . وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع لرأيه ، متبع ، حاطب ليلٍ ومبتغى نيل ، لا يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الخيل ، قد أقبل بوجوه الناس إليه وما أحقهم إذا انشأوا عليه فقبحه الله من عالم ! ما أعظم بليته وأقل رعيته وأسوأ طعمته ! وإن كان المحسود ذا دين قال : يتصنع أن يوصى إليه ، ويحج بشيء عليه ويصوم لتقبل شهادته ويظهر النسك ليودع المال بيته ويقراً في المسجد ايزوجه جاره ابنته ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . »

وبعد هذا كله يعرض الجاحظ لنتائج الحسد الوخيمة في المجتمع :

« منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم من الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الحلفاء ... »

ثم يصف لهذا المجتمع الدواء الذي ينبغي له أن يتداوى به
اتقاء لشر الحاسد :

« وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد ولا السرور إلا في
افتقار وجهه ولا الراحة إلا في حرم مداراته ولا الربح إلا في
ترك مكافأته فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً مريئاً وعش في السرور
ملياً . »



وأظن أننا نستطيع بعد هذا الطرز من التحليل النفسي أن
نقول : هل غادر الجاحظ من متردّم في باب الحسد !

٥

أبو حيان التوحيدى

وإذا ذكرنا الجاحظ في تصويره لطائفة من أمراض النفس فلا نستطيع أن نهمل ذكر أبى حيان التوحيدى فإنه فى رأس نقاد الأخلاق وجهابذة الأحوال الذين قد فرغهم الله لتتبع الأمور واستخراج ما فى الصدور واعتبار الأسباب فقد نجد فى كتابه : «الإمتاع والمؤانسة» بعض الصور كشف فيها عن الظواهر والبواطن أجتزى فى هذا المقام بصورة الصاحب بن عباد ، فقد انتجعه أبو حيان وخبره وحضر مجلسه ووقف على أخلاقه ومذهبه وعاداته وعلمه وبلاغته ، وقد يكون فى هذه الصورة شىء مما نسميه التحامل لأن أبا حيان اعترف بأنه رجل مظلوم من جهة الصاحب وعاتب عليه فى معاملته وشديد الغيظ لحرمانه فإذا وصفه انتصف منه ؛ ولو كان معتدل الحال بين الرضا والغضب أو عارياً منهما جملةً كان الوصف أصدق والصدق به أخاق ، على أنى لا أهتم بهذا الوصف من جهة أنه صادق أو غير صادق

وإنما أهتم به من جهته الفنية فقد كشف أبو حيان عن حالة
الموصوف العقلية وعن أخلاقه وعن مواطن الضعف فيه وعن
السخرية به وعن حركات جسمه ، وفي هذا كله شيء من فن
التصوير النفسى .

بدأ أبو حيان بوصف عقل الصاحب بن عباد أو ثقافته على
تعبير هذا العصر :

« إن الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ،
قد نتف من كل أدب خفيف أشياء وأخذ من كل فن أطرافاً
والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابتهم مهجنة بطرائقهم
ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل
الحكمة والناظرين فى أجزاءها كالمهندسة والطب والتنجيم
والموسيقى والمنطق والعدد وليس عنده بالجزء الإلهى خبر ولا له
فيه عين ولا أثر وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ويقول
الشعر وليس بذاك وفى بديهته غزارة وأما رويته فخوازة ... »
لقد أحطنا فى هذه القطعة بمقدار ثقافة الصاحب بن عباد
بالنسبة إلى العصر الذى عاش فيه ، وإذا شئنا أن نقف على مبلغ
طائفة من أخلاقه وشميه ومزاجه وسيرته فلنسمع ما قاله أبو حيان .

« ولا يرجع إلى الرقة والرافة والرحمة والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته ، شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذى اللسان ، يعنى كثيراً قليلاً (أعنى يعطى الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة ، قريب الطيرة ، حسود حقود حديد وحسده وقف على أهل الفضل وحقده سار إلى أهل الكفاية ، أمّا الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته وأمّا المنتجعون فيخافون جفوته وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمة نخوة وتعنّتاً وتجبّراً وزهواً . . »
وبعد أن يفرغ من هذا الشكل من الوصف الخلقى والنفسى يأخذ في بيان مواطن الضعف في الصاحب :

« وهو مع هذا بخدعه الصبي ويخلبه الغبي لأن المدخل عليه واسع والمأتى إليه سهل وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه ورسائل منشوره ومنظومه ، فما جبت الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلاّ لأستفيد كلامه وأفصح به وأتعم البلاغة منه ، لكننا رسائل مولانا سور قرآن وفقره فيها آيات فرقان واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم في واحد وأبرز جميع قدرته في

شخص ، فيلين عند ذلك ويدوب ويلهى عن كل مهم له وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق ويسهل له الإذن عليه والوصول إليه والتمسك من مجلسه ، فهذا هذا . . . »

ثم يمعن في السخرية به :

« ثم يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجم ويقول : قد نحلّمتك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى وهو بغدادى محكم ، قد شاخ على الخدائع وتحنّك ، وينشد فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره : أعد يا أبا عيسى ! فإنك والله مجيد ! زه ! يا أبا عيسى والله قد صفا ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضى ، مجالسنا تخرج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيد لهم الفطنة وتحول الكودن عتيقاً والحمر جواداً ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنمية وعطية هنية ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعاً ولا يزن بيتاً ولا يذوق عروضاً ... »

فإذا انتهى من هذه السخرية الأليمة ومن هذا التحليل الدقيق
 شرع في تفصيل أسباب هذه المواطن الضعيفة :

« والذي غلطه في نفسه وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد
 برأيه أنه لم يُجِبْهُ قط بتخطئة ولا قبول بتسوئة ولا قيل له :
 أخطأت أو قصرت أو لحنت أو غلطت أو أخللت ، لأنه نشأ
 على أن يقال : أصاب سيدنا وصدق مولانا والله دره ! والله بلاؤه !
 ما رأينا مثله ولا سمعنا من يقاربه ، من : ابن عبد كان مضافاً
 إليه ، ومن . ابن ثوابة ، مقبلاً عليه ، ومن . إبراهيم بن العباس
 الصولى إذا جمع بينهما ، من : صريع الغواني ، من أشجع السامى
 إذا سلك طريقهما وفتح برشائهما وقدر بزندهما . . . »

وكأن أبا حيان قد أدرك أن وصف هذه البواطن كلها لا يتم
 إلا بشيء من وصف الظواهر فيعمد إلى حركات جسم الصاحب
 ابن عبّاد فيوجز الكلام عليها .

« فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ويطيّر فرحاً
 ويتقسم ويقول : ولا كذا . . . ثمرة السبق لهم وقصرنا أن
 نلحقهم أو نقفوا أثرهم ونشق غبارهم أو نرد غمارهم وهو في كل

ذلك يتشاكى ويتمايل ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ويرد كالأخذ
ويأخذ كالمتمنع ويغضب في عرض الرضا ويرضى في لبوس الغضب
ويتهاك ويتماك ويتقابل ويتمايل ويحاكي المومسات ويخرج في
أصحاب السماجات . . . »

٦

مقامات الحريرى

ولم يقتصر أدبنا النفسى على التصوير والتحليل وإنما تصدَّى لموضوعات أعم ، فإذا أحببنا أن نصرف النظر عما تضمنته مقامات الحريرى من جدِّ القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره ومُلح الأدب ونوادره أو عما وشجها به صاحبها من الآيات ومحاسن الكنايات ورصَّعه فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبَّرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ونقتصر على الناحية الثانية التى توخاها وهى التنبيه والتهديب وجدنا فى المقامات صوراً للأخلاق ولبعض المذاهب يخرج بها الحريرى عن أشكال الناس الظاهرة إلى صفاتهم الباطنة ، وقد كنت أودّ لو تمكنت من تلخيص بعض هذه الصور ولا بأس بالإشارة إلى صورتين منها ، لا شك فى أن العصر الذى نعيش فيه لا يتسع لهذا الطراز من الإنشاء ولكن غايتنا فى هذا المقام معنى الكلام لا مبناه ؛ ففى المقامة الرابعة الدمياطية نجد صورتين

متناقضتين لنوعين من سيرة الناس ولدهما الحريري على لسان
أبي زيد السروجي وابنه ، يقول صاحب الصورة الأولى :

« أرعى الجار ولو جار ، وأبذل الوصال لمن صال ، واحتمل
الخليط ولو أبدى التخليط وأورى الحميم ولو جرّ عنى الحميم وأفضل
الشفيق على الشفيق وأفى للعشير وإن لم يكافىء بالعشير واستقل
الجزيل للنزيل وأغمر الزميل بالجميل وأنزل سميرى منزلة أميرى
وأحل أنيسى محلّ رئيسى وأودع معارفى عوارفى وأولى مرافقى
مرافقى وألين مقالى للقالى وأديم تسالى عن السالى وأرضى من
الوفاء باللفاء وأفنع من الجزاء بأقل الأجزاء ولا أتظم حين أظلم
ولا أنقم ولو لدغنى الأرقم . . »

أما الصورة الثانية فإنها تناقض الأولى فإن صاحب هذا
الرجل لما سمع هذا الضرب من الكلام قال له :

« لكن أنا لا آتى غير المواتى ولا أسمى العاتى بمراعاتى
ولا أصفى من يابى إنصافى ولا أواخى من يُلغى الأواخى
ولا أُمالى من يخيب آمالى ولا أبالى بمن صرم حبالى ولا أدارى
من جهل مقدارى ولا أعطى زمامى من يخفر ذمامى ولا أبذل
ودادى لأضدادى ولا أدع إيعادى للمعادى ولا أغرس الأيادى

في أرض الأعادي ولا أسمح بمواسماتي لمن يفرح بمساأتي
 ولا أرى التفاتني إلى من يشمت بوفاتي ولا أخص بحبائي إلاَّ
 أحبائي ولا أستطع لدائي غير أودائي ولا أملك خلتي من
 لا يسد خلتي ولا أصفى نيتي لمن يتمني منيتي ولا أخلص دعائي
 لمن لا يفعم وعائي ولا أفرغ ثنائي على من يفرغ إنائي ، ومن
 حكم بأن أذل وتخزن وألين وتخشن وأذوب وتجمد وأزكو وتحمّد ،
 لا والله بل نتوازن في المقال وزن المثقال ونتجادى في الفعل
 حذو النعل حتى نأمن التغان ونكفي التضامن وإلا فليم أعلك
 وتعلّي وأقلك وتستقلني وأجترح لك وتجرحني وأسرح إليك
 وتسرحني وكيف يُجتلب إنصاف بضم وأنى تشرق شمس مع غيم
 ومتى أصحب ودّ بعسف وأنى حرّ رضى بخطة خسف . . . »



هاتان صورتان تكاد تكون كل واحدةٍ منهما تصويراً لنوع
 خاص من الحياة ، ففي الأولى صورة حياة إنسانية واسعة المدى ،
 مديدة الآفاق ، وإن كانت البشرية لم تصل بعد إلى هذا النوع
 من الكمال ، وفي الثانية صورة حياة أقرب من الحقيقة أى من
 الأمر الواقع ، ولست في مقام الموازنة بين هذين النوعين من

السيرة، ففي الحياة الإنسانية المذكورة في الصورة الأولى أمور
لوعملت بها أمة من الأمم في عصر مثل عصرنا تتكالب فيه
البشرية على المادة لذهبت هذه الأمة بين سمع الأرض وبصرها
فإن الأمة التي لا تتظلم حين تظلم لجديرة بأن يهدمها الظلم فلا يبقى
لها أثر. وفي الحياة الواقعة المذكورة في الصورة الثانية أمور تصح
أن تكون المثل الأعلى فإن الأمة التي لا ترضى بخطة خسف إنما هي
أمة جديرة بالحياة، والخلاصة أن الأدب في هذا الشكل من
الوصف قد عدل عن الأشكال الظاهرة وأخذ في أعماق النفوس
فإذا لم تقتصر في المقامات على النظر إلى الوجهة الفنية وحدها
ونظرنا إليها من الوجهتين الفنية والمعنوية وجدنا فيها نوعاً من
الخواطر الفلسفية، وقد تكون هذه الخواطر غير عميقة بالنسبة إلى
عصرنا ولكن ليس بقليل أن ينشأ كاتب من كتّابنا في القرن
الخامس وأن تخطر بباله أمثال هذه الخواطر التي تصور نوعاً
خاصاً من السيرة والحياة، ولست في حاجة إلى الاستقصاء في
المقامات كلها وإنما اكتفيت بضرب المثل لا غير، أما التوسع
في معرفة ما اشتمل عليه فريق منها من تصوير خلقي أو فلسفي
فلا يتسع له مثل هذا الكتاب ولا ريب في أن معالجة موضوعات

جديدة مثل الموضوعات التي عاجلها الحريري بأساليب مشتملة على بعض الهزل قد تزيد في قوة التنبيه والتهديب اللذين رمى إليهما صاحب المقامات فليس من الضروري أن يكون التهديب مضجراً مقلقاً وقد كان أكبر كتاب الإفريجة وفي مقدمتهم « فولتير » يهذبون البشر بكتاباتهم وهم يهزلون ويسلون !

في عالم النفس

لا بأس بأن أختِمَ الفصل الثاني من هذا الكتاب وهو الأدب النفسى بالكلام على الروح الفلسفى الذى استفاض فى أدب الإفرنجية، لعلنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الروح الفلسفى فى أدبهم وبين تغلغل كِتَابِ أمثال الحريرى وأبى حيان والجاحظ إلى أعماق النفوس، فإن الحاجة إلى الفلسفة ماسة فى كل زمن، وإذا كان من الممتنع أن نعرف وجه الفلسفة فى المستقبل فليس من الممتنع على نحو ما قال « فاكه » أن نعرف أن الفلسفة خالدة فى كل عصر، وأنها تقضى حاجة من حاجات العقل البشرى وتجمع المستنبطات العلمية فى نظام من الأفكار العامة العظيمة، وتجتاز العلم، فتبحث وتنقب على قدر الإمكان عن لغز الكون وسره، فلا الفلسفة ولا علم ما وراء الطبيعة ينطويان فى يوم من الأيام؛ فالحياة لا قيمة لها كما قال « نيتشه » إلا من حيث أنها آلة المعرفة، ومهما تطمح البشرية إلى المعرفة الجزئية فإنها تظل شديدة التطلع إلى المعرفة الكلية، فلا تكلُّ

في سبيل الوصول إلى هذه المعرفة ، ولا تفتر رغبتها فيها .



الروح الفلسفي في أدب الإفرنجية مظاهر شتى .

فمرة يعرض كتابهم لنفس المرأة فيمعنون في بواطن هذه النفس حتى تنكشف هذه البواطن للعيون كما فعل « بورجه » في روايته « أكاذيب » فإنه لمّا قال في بعض مواطن هذه الرواية : « من النساء طائفة لهنّ أسلوب سماوى في الإغضاء عن انبساطات ينبسطها الرجال في حضرتهنّ . . . » كشف الغطاء عن حيلة خالدة من حيل النساء .

ولمّا قال في الرواية ذاتها : « تشعر النساء بفرح عظيم إذا قلن في شيء من الابتسام حقائق لا يؤمن بها الرجال الذين يسمعونها منهنّ » ، فإنهنّ يشعرن في مثل هذه الحال بقليل من الخطر الذى يهزّ أعصابهنّ هزاً لذيذاً . . . » عرض ملاحظة ثمينة في معرض حديث أصاب فيه كل الإصابة .

ولمّا قال أيضاً : « كلما قلّ نصيب استحقاق النساء للشفقة عليهنّ ازدادت رغبتهنّ في خلق هذه الشفقة في القلوب

وإلهام هذه القلوب إياها . . . » صوّر طائفة يسيرة من روح المرأة في صورة جديدة .

لقد كان « بورجه » أستاذ الروايات النفسية . إنها وصف النفوس وحالاتها ونشوؤها وتحولاتها وصفاً قوياً تعمق فيه كل التعمق ، ففي روايته « أكاذيب » وصف كيف يكون حب النساء المنصرفات إلى الملذات ، أو حب النساء المنخفضات في عصرنا هذا . وفي روايته « التلميذ » وصف ماذا تستطيع أن تنشئه العقيدة الفلسفية في النفس التي عزمت على أن تطابق بين أفكارها وعملها . ففي هذه الرواية مائة وخمسون صفحة في التحليل تكاد تكون أعجب ما كتب في هذا الباب .

ومرّة يعرضون لتصوير غرائز النساء اللواتي يندفعن في أعمالهن مطيعات لهنّ ودمهنّ ، إنهنّ الأعيب الطبيعة وهنّ يجهلن القوة التي تدفعهنّ . وإلى القارئ صورة عاطفة من عواطف أحد الأشخاص الذين صورهم « موباسان » في قصته : « اليد اليسرى » : « هل تعلم هذه المرأة في معظم الأحوال ، هل تعلم هاته النساء ، حتى أدقهنّ نظراً وأشدّهنّ تكبراً لماذا يعملن !

إنهن يجهلن ذلك كما يجهل الدولار لماذا يدور في الهواء ، فكما
تهب ريح غير محسوسة على هذا الدولار فتدير سهمه المركب
من حديد أو من نحاس أو من خشب فكذلك يظهر عامل
من العوامل لا تدركه الحواس فيحرك قلب النساء المتقلب
ويدفع هذا القلب إلى عزيمة من العزائم ، سواء أكانت هذه
النساء من المدن أم من الأرياف أم من الضواحي أم من الصحراء .
وبعد هذه الحركات يستطعن أن يدركن ، إذا كنَّ يعقلن
ويفهمن ، لماذا عملن هذا الأمر بدلاً من ذاك ، أما في وقت تحركهن
للعمل فإنهن يجهلن سبب التحرك لأنهنَّ الأعيب حواسهنَّ
العجيبة فهنَّ عبادات طائشات يخضعن للحوادث وللبيئات
وللانفعالات وللالتفاتات التي تهتز منهنَّ نفوسهنَّ وللمهنَّ ! »

وفي بعض الأحيان يتصدى الكتاب لمرضٍ من أمراض
النفس فيصفون مبلغ تأثيره في النفس ، قال « أنا تول فرانس »
في وصف الحسد :

« يعمل فيما الحسد عمل الملح في الجليد ، إنه يحل تجاليد
الإنسان بمجامعها ويعجل في حلها تعجیلاً راعباً ، فمثل الحاسد
كمثل الجليد فإن الحاسد ينحل في الوحل ، فالحسد نوع من العذاب

والنار ، والحاسد محكوم عليه بالعذاب الذي يصيب من يريد أن يعرف كل شيء وأن يرى كل شيء ! »

ومرات يصف كاتب من الكتاب مزاجاً من الأمزجة فيمتجلى في هذا الوصف روح عقيدة فلسفية بجملتها كما تجلى روح التفاؤل في وصف السيدة « سارسي » لمزاج والدها في مقال علق منه بالحفظ ما يلي :

« كان أبي ينهض بأعباء الحياة الثقيلة والابتسامة على شفثيه فقد كان جذل الظاهر والباطن يستقبل الحن وهو هادي البال حتى كنت أقول في نفسي : أفلم تجر دمة في قلبه ، وكان ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن فإذا حدث حادث واستطاع بعده أن يغط قلمه في الخبر ويتمم مقاله الذي بدأ به لم يبال بهذا الحادث مهما يكن عظيماً ، ومن رأيه أن لا يهتم الإنسان بأمر قيمته نسبية ، فالذين هم من هذه الفطرة سعداء لأنهم يفخرون بسكوتهم في آلامهم ؛ كان قومي الطبع ، وما دام قادراً على أن يعارك ويعلم ويقرع الناس ويقرعوه ويغمرهم ويغمره فالحياة في نظره حسنة طيبة » .

ولكن التعمق في التحليل لا يظهر في شيء ظهوره في وصف

حالة من حالات النفس كالفرح والكآبة والتغلغل إلى هذه الحالات وكشف الغطاء عن دقائقها المتباينة .

شهد مرة « أناتول فرانس » رواية : هاملت ، في المسرح الفرنسي في باريس ، فتكلم على هذه الرواية في كتاب من كتبه الخالدة : « الحياة الأدبية » قال في جملة كلامه مخاطباً هاملت نفسه : لقد شعرت في رؤيتي إياك يا أميرى بفرح كثيب ، وهو أكثر من الفرح الفارح !

قسم « أناتول » الفرح في عبارته هذه قسمين : الفرح الكثيب والفرح الفارح أو الفرحان ، وهذا غاية في دقة التحليل .

ومن هذا القبيل قوله في الكآبة ، وقد تكلم على كتاب من كتب « لوتى » فقال :

« قصّ علينا « لوتى » أنباء الأسابيع الأخيرة التي قضاها في بلاد اليابان ، إن في قصصه هذا صفحات منتخبة ، لكنها غاية في الكآبة ، وسواء أوصف البلد المقدّس « كيوتو » وألمح إلى معابده الآهلة بعجائب الخلوقات من قديم الدهر ، أم صورّ الجماعات الحسان في « يديو » التي تنسحب على أذيال أوربة في أزيائها

ورقصها ، أم مثل لنالامبراطورة في سحرها الغريب ، إنه ينشر في صفحاته كآبة غامضة دقيقة نافذة ، تغشى قلبك كما يغشى الضباب الجو !

فغموض الكآبة ودقتها ونفاذها غاية في التعمق في معرفة حالات النفس .

وكما كانت الكآبة في هذا المقام غامضة دقيقة نافذة ، فقد كانت في مقام آخر ذات صفات مختلفة عن هذه الصفات ، فقد تسكلم « أناطول » مرة على « فلورى » الذى كان له في النقد الأدبى وفي الصحافة المقام الأول ، كفّ بصر « فلورى » فى أواخر عمره ، فكان يزوره « أناطول » فى داره ، وفى زيارة من هذه الزيارات طاف « فلورى » حول مكتبته و « أناطول » قابض على ذراعه ، يده على الطريق ، فكان « فلورى » يضع يده على كتاب من الكتب فيعرفه بمجرد اللمس ، وإنه ليضع هذه اليد على كتاب اسمه : شيشرون ، إذ أخذت هذا الشيخ هزّة ، وبعد أن ذكر لأناطول تأريخ هذا الكتاب وكيف صار إليه قال أناطول :

« وإنه ليتكلم إذ بلّل الدمع عينيه ، وكنت معه وحدى

لا يراه غيري ، فلمسني بيده ، فكأنما اجتمعت لي الشيوخ
كلهم في صورته ، أفلا تلفننا ذكريات شبابتنا الطائر بكآبة لطيفة
لذيذة في خاتمة حياتنا ! » .

فأضاف « أنا تول » إلى الكآبة في هذا الموضع صفات
اللطيف واللذة ، وفي موضع آخر جعل لها صفات تختلف عن كل
ما تقدم ، فقد نشر « موباسان » قصصاً سماها : « اليد اليسرى »
في الوقت الذي نشر فيه « لوتي » رحلته إلى اليابان وسماها :
« يابانيات الخريف » . فقال « أنا تول » في قصص « موباسان » :
« إنها تترك في القلب أثر الكآبة ولكن « موباسان »
لا يفصح مثل « لوتي » عن كآبة الأشياء ، ولا يظهر عليه أن
تفاوت قوانا وآمالنا يعمل فيه عمله ، فالحقيقة أنه خال من القلق
على أنه ليس بجذل ، فالكآبة التي ينشرها إنما هي كآبة بسيطة ،
قاسية ، صافية ! »

وكما يتجلى روح الفلسفة في إمعانهم في بواطن النفس ، وفي
كلامهم على الغرائز وفي تصويرهم للأهواء وفي وصفهم للأمرجة
وفي تحليلهم لحالات النفس ولدقائق هذه الحالات فكذلك يتجلى
هذا الروح الفلسفي في تعليقاتهم ، فبعد أن تكلم « أنا تول »

على كآبة « لوتى » و « موباسان » أخذ يبسط أسباب هذه الكآبة فقال :

« لقد أكلنا ثمر شجرة العلم ، ولم يبق منه فى الأفواه إلا طعم الرماد ، وضربنا فى مناكب الأرض وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفرة ، وبأن لنا اختلاف البشرية ورأينا أن هذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أجانب لا تشابه أرواحهم أرواحنا إلا بقدر ما تشابهها أرواح الحيوانات ، ثم جللنا فى الأحلام كل مجال فقلنا : ما هذه البشرية التى تتغير سحناتها وأرواحها وآلهتها بتغير مباءاتها ، ولمّا كنّا لا نعرف من الأرض إلا حقولها التى كانت تدرّ علينا الخيرات كانت هذه الأرض كبيرة فى أعيننا فلمّا عرفنا مقامها فى العالم تصوّر لنا صغرها فقد علمنا أنها ما كانت إلا قطرة طين ، فوضع هذا العلم منّا ، وكنّا محمولين على الظن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تمثّل لنا وأن فى الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير . الحياة فى ذاتها لا طويلة ولا قصيرة ، فالرجال الذين تغلب عليهم البساطة فيقبسونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى يقولون وحقاً

ما يقولون إن الإنسان إذا مات بعد أن يخطئه الشيب فقد شيع من عمره . أمّا نحن فماذا صنعنا ، فقد شئنا أن نحزر عمر الأرض القديم وعمر الشمس وها نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار طبقات الأرض وعلى أعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة ، غرقنا في بحر الزمن والمسافة ، فتبين لنا أننا لم نك شيئاً فمقل علينا هذا الأمر ولم نشأ أن نقول شيئاً لكبريائنا فاصفرت وجوهنا ، والخطب الجلل أن إيماننا ذهب بذهاب جهالتنا الحسنة ، ذهب رجاؤنا واضمحلت أملنا ، فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاءً لآبائنا ، وهذا شديد علينا ، فقد كان الإيمان بجهم نفسها يطيب ويعذب .

ومما زاد في بؤسنا أن تكاليف الحياة المادية أصبحت أثقل من قبل ، فإن الجماعات الحديثة قد جوّزت ضروب الأمانى ، فاستثارت بذلك مجهود الإنسان ، وأصبح التزاحم على الحياة أشدّ من كل دهر ، وصار الظافرون فيها أكثر حمقاً ، والمنكسرون أعظم انكساراً ، لقد أضعنّا حبّ الخير بضائع الإيمان والرجاء ، وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر ، بحر العالم ، فمن الذى يأتينا اليوم بالإيمان والرجاء وحب الخير ! »

الأدب الوطني

إذا كان حسُّ الطبيعة في الأدب يؤدي إلى التعلق بالأشكال الظاهرة و يصرف العيون عن الأشكال الباطنة على نحو ما تقدمت الإشارة إليه فإنه من جهة ثانية يقوى صلة المرء بوطنه ، وهذه فضيلة من فضائله غير قليلة ، وأعني بالصلة الوطنية في هذا المقام ما يعنى بها شارل موراس في كتابه : أفكارى السياسية ، فالوطنية في رأيه إنما هي الحنو على بقاع الوطن وتقديس أرض الأجداد والفضيلة التي تشمل عليها الوطنية إنما هي حماية هذه الأرض ودفع الأجنبي عنها .

فالفرق بين الوطنية وبين القومية ظاهر ، فالقومية بدلاً من أن تكون غايتها محبة أرض الآباء والأجداد فإن غايتها محبة الآباء أنفسهم والحنو على دمهم وعلى ما أورثونا إياه من آثار عقولهم وأخلاقهم

فالأدب الوطني عبارة عن تصوير هذا الحنو الذي أشار إليه « موراس » في تعريفه وهذا التقديس الذي ذكره . إن تعريفاً

مثل تعريف « موراس » للوطنية يخلو من كل تزويق ، فالوطني من يحنو على أرض آبائه وأجداده ويقدر هذه الأرض ويدفع الأجنبي عنها ، وعلى هذا الشكل فإن أساتيد الوطنية إنما هم الكتاب والشعراء لأنهم يستطيعون وحدهم أن يتغنوا بوطنهم وأن يعلموا الناس محبة أشكال هذا الوطن وألوانه وأن يحملوهم على ذوق محاسن هذه الأشكال والألوان ، وعلى ما به فكل وطنية مجردة من هذا الحنو ، منسلخة من هذا التقديس إنما هي وطنية فارغة ، وعبثاً يحاول السياسي أن يدعى هذه الوطنية فمهما تكن أساليبه في هذه السبيل بارعة فإن وطنيته لا تكون صحيحة إلا إذا كانت مبنية على محبة أرض آبائه وأجداده ، إنا لا ندفع الأجنبي عن أرضنا إلا إذا أشربت قلوبنا محبة هذه الأرض وتسلسل هذا الحب أحقاباً طويلة ، ولا يحسن إفراغ هذه المحبة على قلوبنا مثل الكتاب والشعراء ، فهم القادرون على تصوير محاسن الوطن ، وهم القادرون على قذف محبته في نفوسنا ، فلنقدس الأدب إذا أردنا تقديس الوطن . . .

لننظر كيف كان كتابنا وشعراؤنا يحنون على أوطانهم في متعاقب العصور .

في الجاهلية

أثرت العرب في القديم سكنى البوادي والحلول بالبيداء ، فلم تنحصر في المدن والأبنية ، فتراها في خلال السنة تنتقل من برّ أفيح إلى مثله ، فهي تسكن حيث تشاء دون أن تكون محكمة في الأرض ، فعافت الأبنية والتحويط وفضلت التصرف في الأرض والجولان فيها ، فلم تألف وطناً بعينه ، وإنما لها في خلال فصول السنة أوطان شتى ، وعلى الرغم من هذا الجولان في الأرض نرى شعراء الجاهلية قد بكوا على عفاء ديارهم وانمحاء منازلهم وانقطاع دمنهم وحنّوا إلى ديارهم ، وليس من الضروري الاستقصاء في أشعارهم حتى نعرف هذا البكاء وهذا الحنين فلا تكاد قصائدهم تخلو من آثار هذا كله .

إني إذا ذكرت قول امرئ القيس :

بكي صاحبي لما رأى الدرب نحوه وأيقن أنني لاحقان بقيصرا
أدركت السرّ في هذا البكاء فكأنما صاحب امرئ القيس
قد مرّ بوطن غير وطنه ونزل بأهل غير أهله فاجتاز جبلاً وأجماً

لا عهد له بمثلها من قبل فغلبت عليه الوحشة ، تلك الوحشة التي تغلب على صاحبها إذا ترك ربوعه ومرّ بأماكن قد خلعت عليها الطبيعة جلايدب العظمة مثل جبال طوروس التي مرّ بها صاحب امرئ القيس ومثل غابات الأناضول ، ولمّا أدركته الوحشة حنّ إلى أهله وبكى على فراق وطنه وودّ لو حملته الرياح إلى مضارب به . . .

لقد اشتمل شعر الجاهلية على أشياء غير قليلة من هذا النوع أكتفى بالإشارة إليها حتى قال الجاحظ في الحنين إلى الأوطان :
وترى الأعراب تحن إلى البلد الجذب والحل القفر والحجر الصلد
وتستوخم الريف ، وترى الحضري يولد بأرض وباء وموتان وقلة
الخصب فإذا وقع ببلاذ أريف من بلاده وجناب أخصب من
جنابه واستفاد غنى حن إلى وطنه ومستقره .

وطن محمد

ثم جاء القرآن وجاء بإشارة إلى منزلة الوطن في النفوس ،
فمن آياته البينات : « ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم
أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . فقرن الضنّ
بالأوطان إلى الضنّ بمهيج النفوس .

وإذا بحثنا عن الوطن الذي نشأ فيه سيدنا محمد ، صلى الله
عليه وسلم ، فإننا نجد أن أرض هذا الوطن لم تضحك سماؤها
ولا اخضل شجرها ولا رفّت تعايشها ولا ماجت أنهارها وإنما
نشأ في صفاح جبال سودٍ تدخل الكآبة على القلوب تحت
سماء كامدة اللون ، بين صحارى صاهرة الشمس لا تأنس فيها
العين بخضرة ربيع أو صفرة خريف ولا تنعم فيها الأذن
بنوح غندليب أو بحفيف ورق أو بخير ماء ، فقد حرم الله
سيدنا محمداً محاسن الطبيعة التي تفتح العقول وتلهم العبقريات
وتوحى الكلمات .

وكأني لا أزال أرى غار حراء الذي كان يتحنث فيه ،
 هذا الجبل الأسود الذي لم ينبث فيه نبت ولا اهتز فيه شجر
 كأني لا أزال أرى هذا الغار الذي كان يفرع إليه في خلواته
 هارباً من ضوضاء الحياة ، راغباً في هدوئها . كنت أقول في
 نفسي وأنا في صفح حراء أفي مثل هذا الغار تنبثق عبقرية أم
 يبرع فضل أم يصفو ذوق أم ينمو شعور أم ترق عاطفة ، وإني
 لا أذكر الطبيعة التي نعمت برؤيتها في إيطاليا وسويسرة
 وفرنسا وإنجلترا ولا أفكر في هذه العبقریات التي نشأت في
 سهولها المديدة بين جبال شجيرة وأنهار مأجبة وبحيرات باسمه
 وحدائق غلب إلاّ ازدادت معجزة سيدنا محمد عظمةً في عيني .
 أي رسالة توحى جبال مكة والمدينة ، أي نبوة تلهم هذه القفار
 الرهيبة والرمال المتراكبة !

وعلى الرغم من هذا كله كان سيدنا محمد يحب جباله المظلمة
 وقفاره الصاهرة وسماؤه العابسة ، وسواء عليه أرفت الطبيعة تحت
 سماء مكة أم كمدت ، وسواء عليه أنضرت جبالها بالشجر أم
 جرّدت تجرّيداً ، وسواء عليه أآذته مكة أم لم تؤذّه ، أنه أحبّ

كآبتها وظلمتها ومكدهتها وأذن في الناس بالحج إليها فأتوها رجالاً
وعلى كل ضامرٍ من كل فج عميق فشهدوا فيها منافع لهم وذكروا
اسم الله في أيام معلوماتٍ وقضوا تقفهم وأوفوا نذرهم وطوفوا
بالبیت العتيق !

٤

أبو قطيفة

وإذا تغلغلنا في أدبنا وجدنا أن هذا الأدب لم يخل من الحنو
على بقاع الوطن وتقديس أرض الآباء والأجداد. وإذا كان المقام
يضيق عن إشباع الكلام على الشعراء والكتّاب الذين حنّوا
على أوطانهم وقدّسوها تقديساً فلا أقلّ من إشارة مختصرة إلى
بعضهم حتى نستطيع أن نقابل بين بعض أدبنا الوطني وبين
بعض أدب الإفرنجية في هذا المعنى .

أبو قطيفة شاعر من شعراء بني أمية أخرجوه من ثلاثة عشر
قرناً من وطنه ، فأذاب الهمُّ قلبه وأتى عليه فرط النزاع على
نحو ما يصيب الذين يحوّلونهم إلى غير أوطانهم .

لما شمرَّ عبد الله بن الزبير للخلافة ودعا الناس إلى بيعته نفى
بني أمية عن المدينة إلى الشام .

وكان أبو قطيفة المعيطى مع من نفاهم ، وأبو قطيفة هذا من
العنابس ، من بني أمية .

قدم الشام أبو قطيفة وفيها بنو أمية ، فيها عزُّ خلافتهم
وبشاشتها ، فهل ألهته قصور يزيد بن معاوية في دمشق عن
قصور المدينة وأطامها ؟

القصر ، فالنخل ، فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون
إلى البلاط فما حازت قرائنه دور بعدن عن الفحشاء والهون !
فلم تشغله أبواب جيرون في ظلال مسجد بني أمية في دمشق
عن قصر سعيد بن العاص وعن نخله ، وعن الجماء وغير ذلك
من أماكن المدينة .

يبعد المرء عن مائه وأرضه وسمائه ، وقد يردُّ ماءً أعذب
من مائه وترحبُّ به أرض أكرم من أرضه ، وتظللّه سماء أضحك
من سمائه ولكن المرء لا يبعد عن أى ماء ولا عن أية أرض ولا
عن أية سماء ، وإنما يبعدونه عن هذا الماء الذى ورده آبائهم
وأجداده وعن هذه الأرض التى اشتملت على عظام قومه ورفاتهم
وعن هذه السماء التى باركت لهؤلاء القوم ، إنهم يبعدونه عن
لحمه ودمه وعظمه ، عن منابت فكره وشعوره وعاطفته !

هل كان يعوز أبا قطيفة وهو في دمشق بين إخوانه وعشيرته
شئ من عذوبة الماء ورقة الهواء وحسن السماء ؟ أما كان فيها

عزيز الجانب موفور الكرامة والخليفة أموى والقوم أمويون !
 أجل ! كان يعوزه شيء أعظم من هذه الأمور المادية ،
 كان يعوزه مراتع رتعت فيها أفكاره وعواطفه فى صباه .
 فلننظر كيف كان يذكر هذه المراتع التى رتعت فيها خواطره
 فى الماضى .

لما حنَّ وهو فى دمشق إلى القصر وإلى النخل وإلى الجمَّاء
 كانت عاطفته فى هذا الحنين مجردة من كل تزويق ، فالمدينة
 أشهى إلى قلبه من أبواب جيرون فى دمشق ، وإذا أحببنا أن
 نستنبط علّة هذه الشهوة وجدنا أن السبب فيها بعد دور المدينة
 عن الفحشاء والهوان !

عاطفة بدوية ، منزّهة عن الفحشاء ، خالصة من الذل ،
 هذا شكل من شعر أبى قطيفة الوطنى فلنلتمس لنا شكلا آخر
 من هذه الوطنية :

بكى أحد لما تحمل أهله فكيف بنى وجد من القوم آلف
 من أجل أبى بكر جلت عن بلادها أُمّية والأيام ذات تصارف
 وأبو بكر هذا إنما هو عبد الله بن الزبير ، فقد كان يكنى
 بأبى بكر ، ففى هذا الشعر شكل غير الشكل الأول ،

لقد جعل أبو قطيفة في هذه الأبيات حياةً للطبيعة على نحو ما يفعله شعراء الإفرنجية في فيض خواطرهم وصوب قرائحهم ، فقد شرك الطبيعة في عاطفته وشعوره وألمه ، لقد استحكمت الألفة بين جبال المدينة وبين الذين أُخرجوا منها ، فبكت هذه الجبال بعد جلائهم وحنّت إليهم .

كان أبو قطيفة في دمشق مشغول الفكر ، لا يدرى هل بقيت قصور وطنه على حالها أم تغيرت :

ليت شعري ، هل البلاط كعهدي والمصلّى إلى قصور العقيق !

لقد كان في هذا الشعر الكريم يخرج من هذا النوع من الوطنية إلى نوع آخر من القومية فكما بكى على أرض آبائه وأجداده وحنّ إليها فكذلك بكى على قومه أنفسهم واشتاق إليهم :

وهل برحت بطحاء قبر محمد أراهط غرّ من قریش تباه كره

لهم منتهى حبي وصفو مودّتي ومحض الهوى مني وللناس سائر

وقد ردّد هذه النغمة في مقام آخر حيث قال :

أقطع الليل كله باكتئاب وزفير ، فما أكاد أنام

نحو قومي إذ فرقت بيننا الداء رُوحات عن قصدها الأحلام

خشية أن يصيبهم غمت الدهر — ر وحرب يشيب منها الغلام

فما أرقّ هذه القومية ! لا يكاد أبو قطيفة يملكه غمض الليل وهو في دمشق ، ولماذا هذا الأرق ؟ إنه يخشى أن يصيب قومه عنت الدهر ، وإنه يخشى الحرب بينهم فهو كئيب البال الليل كله ، لقد كان قلبه مشتتاً في الحنين إلى أرضه مرّةً وإلى قومه مرّةً ، كان مشغول الفكر بالحجاز يضرب بعينه إلى السماء حتى إذا رأى السحاب متوجهاً نحو الحجاز هاج شوقه واشتد نزاعه : إذا برقت نحو الحجاز سحابة دعا الشوق منى برقها المتيمان لم تقع عيني من شعر أبي قطيفة إلا على أبيات قلائل في الأغاني ، ولكن هذا القدر اليسير من الشعر يحتوى على أشياء كثيرة من الوطنية ، وإذا كانت الوطنية على مصطاح عصرنا ضرباً من الحنو على بقاع الوطن وتقديس أرض الآباء والأجداد فأبو قطيفة قتله هذا الحنو والتقديس ، لقد جمع في شعره بين الوطنية والقومية ، فتغنى بأرض آبائه وأجداده وبكى على عشيرته وإخوانه وما أشد الحالة التي كان فيها بعد أن أخرجوه من المدينة وقذفوا به إلى الشام :

أحنّ إلى تلك الوجوه صبايةً كأنني أسير في السلاسل راهن وهل من حالةٍ أشد من حالة الأسر ، فكيف يكون ليل

الأسير ونهاره إذا كان هذا الأسير شاعراً رقيق القلب ، لطيف
الحس ؟ والمؤلم في هذا كله أن أبا قطيفة بعد فرط هذا الحنين
وبعد هذه الدموع التي سكبتها على وطنه وعلى قومه أذن له
ابن الزبير في الرجوع إلى المدينة لأنه عطف عليه لما بلغه شعره
وقال : من لقيه فليخبره أنه آمن ، فليرجع ، ولكنه مات في
الطريق قبل أن يتمتع من هذه الأرض التي أحبها ومن هؤلاء
الإخوان الذين أحبهم .

إلا أن حبه لأرضه وعشيرته لم يمت ، فقد بقي خالداً في
هذه الأبيات القليلة التي تنهت إلينا ، وهذا صداه بعد أن
أتى عليه ثلاثة عشر قرناً ، فرحم الله شاعرنا الأموى ورحم الله
وطنيتة الكريمة .

الجاحظ — البحترى — ابن الرومى — المتنبي

ثم جاء عصر بنى العباس ، فاختمت الفكرة الوطنية في القلوب ، حتى ألف بعض الكتاب رسائل خاصة فيها ، ورسالة الجاحظ في الحنين إلى الأوطان مشهورة وهو الذى يقول فيها : « وأنت لو حوّلت ساكنى الآجام إلى الفيافي ، وساكنى السهول إلى الجبال ، وساكنى الجبال إلى البحار وساكنى الوبر إلى المدر لأذاب قلوبهم لهم ، ولأتى عليهم فرط النزاع » .

فالجاحظ الذى يقول مثل هذا القول صاحب نزعة وطنية ، وقد ذهب فى نزعته مذهباً بعيداً ، فجاز من وطنه الأصغر وهو البصرة إلى وطنه الأكبر وهو جزيرة العرب ، فمن بعض كلامه : « وأنا أقول فى هذا قولاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقل : أرجو ، لأنى أعلم فيه خلا ، ولكنى أخذت بأداب وجوه أهل دعوتى وملتى واعتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب ! » .

فما أعذب قوله : دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى !
 ما أعذب هذه الياءات كلها ! إنها تدل على ولع صاحبها بقومه

وكلّفه بوطنه ولهجته باغته ، فقد جعل من جزيرة العرب ملكاً
خاصّاً به حبس عليه قلبه .

وكان المجترى متشوقاً يتذكر ألافه ، وكانت له نفس تتبع
أوطانها ، فقلبه في أدبه الوطني رقيق ، وشعره في هذا المعنى
نضير اللون لأن صاحبه ربيب الحضارة والحدائق والقصور فإذا
حنّت ركبته وهو في العراق إلى الشام فقد كانت تحنّ لأنها
يشوقها برد الشام وريفه وتشوقها مدافع الساجور وتقابل تلاعه
وكهوفه على ضفتيه فطالما هاجه خيال زاره من هذه الأماكن
كلها ، ما يغيب مطيفه ، وطالما حنّ إلى قصور البليخ وأفدائها
وإلى صوامع زكّي ورهبانها .

أمّا ابن الرومي فقد كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم ولا
يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها لهم في قصيدة لسليمان بن
عبد الملك بن طاهر يستعديه على رجلٍ من التجار أجبره على
بيع داره واغتصبه بعض جذرها :

ولى وطن آليت أن لا أبيعهُ وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا

عهدت به شرح الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكم
 وحجب أوطان الرجال إليهم ما أرب قضاها الشباب هنالك
 إذاذكروا أوطانهم ذكررتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
 فوطنيته في هذه الأبيات قريبة من وطنية عصرنا هذا.

ولقد تغنى المتنبيء بجزء من أرض آبائه وأجداده على الرغم
 من تردده في الحنين إلى الوطن ، وعلى الرغم من تناقضه أحياناً
 في هذا الحنين ، فقد أحب حمصاً إلى خنصرة لأن كل نفس
 تحب مخياها ، وتذكر مصيفه في حمص ومشتاه في الصحصحاحان
 على النحو الذي يصيف عليه أهل البدو ويشتون فالأثر الذي
 أبقاه في أدبه الوطني إنما هو أثر بدوي لأن أبا الطيب كان ابن
 البادية وريث القبائل ، وقد بقيت في ذهنه صور البادية كل
 عمره فلا يهمل في مصيفه في حمص ومشتاه في الصحصحاحان
 إلا روضة ترعاها خيله وحلة يغزوها وعانة يصيدها وقطعة من
 الإبل يسطو عليها !

ابن الساعاتى

ولكن الشاعر الذى كان منقطع النظر في النزعة الوطنية إنما هو ابن الساعاتى .

لم يُختم الشعر بالمتنبى ، ولا ختم بالمعري ولا بالشرىف الرضى ولا بكشاجم ولا بابن الخياط الدمشقى . لقد ظهر شعراء بعد هذه الطبقة المبرزة المبدعة ، واثن كان لكل واحد من المذكورين ميدان يجول فيه وأفق يطير إليه ، فقد ظهر بعدهم شاعر انفراد بميدانه وبأفقه ، ظهر ابن الساعاتى الدمشقى فى القرن السادس ، عصر صلاح الدين الأيوبى ، وأخلق بشاعر مثل ابن الساعاتى ، ينشأ فى عصر مثل عصر صلاح الدين أن يأتى بقلائد تشبه قلائد المتنبى فى سيف الدولة ، اثن كان سيف الدولة حصناً حصيناً فى وجه الروم ، لقد كان صلاح الدين مثل هذا الحصن فى وجه الصليبيين ، ولكن سيف الدولة خلقه الله وخلق له المتنبى حتى يخلد غزواته وحروبه ، فهو وشاعره متلازمان ، أما صلاح الدين فلم يكن له نصيب من ابن الساعاتى فى تخليد حروبه فليس لنا

أن نفتش في شعر ابن الساعاتي عن قصائد نسمع فيها صهيل الخيل
 وقعقة اللجج وصرير العوالي كما سمعنا هذه الأنغام في شعر المتنبي
 فما هو من فرسان هذا الميدان ، ولكنه فارس ميدان لم يجل
 فيه غيره جولته ولا برز فيه تبريزه فقد أرسله الله في عصر
 اختمرت قبله لغة الشعر كل الاختمار ، فما على ابن الساعاتي إلا
 أن يغرف من بحر الخضم وما عليه إلا أن يُصرف هذه اللغة
 الناضجة في أشرف الغايات وأسمائها ، فلست بمتعرض في هذا
 الباب لفنون شعره ولما اشتملت عليه هذه الفنون من مدح
 أو غزل أو رثاء وإنما أريد أن أشير في هذه الكلمات المختصرة
 إلى ناحية من شعره ظهر مثلها في عصرنا هذا وكنا نظن أنا
 المخترعون لها ، السابقون إليها ، وإذا بابن الساعاتي يردنا إلى
 الصواب ، لم ينبت شعرنا الوطني في العصر الذي نعيش فيه ،
 وإنما نبت هذا الشعر من عصور بعيدة ، لقد تغنى الشعراء
 بأوطانهم في أحقاب متطاولة ، كما بينت ذلك في أول هذا
 الفصل ، ولكن ابن الساعاتي برع في هذا الباب ، لقد تغنى بوطنه
 أعذب غناء ، فلست ذا كرا من شعره الغزير إلا هذه الناحية
 وحدها ، فقد تفنن فيها ، وكثرت محاسنها في آفاقها ، وإذا

أردت أن أختار له صفة اختصه بها فلا أسميه إلا شاعر الوطنية ،
فما عرف أحد من الشعراء فضل الوطن معرفته ولا نعم بفتنة
الطبيعة نعمته ولا ألف أفياء ألقته ولا اشتاق إلى أرضه وسمائه
اشتياقه ولا ذكر إخوانه في ظلاله ذكره لهؤلاء الإخوان فابن
الساعاتى ذاب في محبة وطنه ، ذاب في محبة دمشق ، ومتمنزهات
دمشق ، ذاب في محبة كشيائها وباناتها وأصاها وأسحارها
ونسيمها وجوها وخائلها وجناتها ودوحها وبلابلها وظلها ومائها
وتربها وحصاها وترجسها وبهارها ووردها وبنفسجها وجلنارها
ورمانها ، ذاب في هذه المحاسن كلها وذابت هذه المحاسن في
شعره فلست ترى في هذا الشعر الوطنى إلا آثار منازل هو في
دمشق ماتت فيها الكروب أو صور طبيعة نفخت فيها الحياة
حتى غدت لمياها قلوب تعشق بها وتحب ولدوحها معاطف تشبه
معاطف الراقصات ، وحتى غدا الدوح في هذا الشعر يهزه نغم
القمارى ويميل من مرج الشباب إلى الدلال ، لقد ملكت دمشق
على ابن الساعاتى قلبه ولبه فإذا غاب عنها بكى على شرح شبابه
وعلى أيام جهله فيها وشكا تلون عهود أهلها واشتاق إليهم ورجا
أن يقرب الله مزارهم فهو لا يسلو عنهم ، إنه وافى لمن غدر منهم

حافظ لعهود من ضيّع كل عهدٍ ، وقد يشتد به الشوق إلى دمشق وإلى محاسن دمشق وإلى أهل دمشق فيتمنى وهو في مصر لو تمرّ غادية شامية تحمل إلى نفسه عن أهل دمشق منى هذه النفس ، وتنقل إليها أحاديث الحب ، لقد خلق الله له نفساً حرّة تصبو إلى إخوانه وتبكي إذا غابت عن هؤلاء الإخوان : وما أرقّ شعور ابن الساعاتي ! ما ألطف حسه ! ما أشد ذوقه لمحاسن الطبيعة ! فقد أعطاه الله عينا لا يفوتها حسن من محاسن هذه الطبيعة وأنفا لا يفوتة شيء من شميم روائحها الطيبة وأذنا فتنت بسماع ألحانها وأنغامها ولقد أعطاه الله شيئا أجلّ من هذا كله ، أعطاه قدرة على تصوير هذه الطبيعة وعلى إحيائها في شعره ، فهو شاعر الوطنية الدمشقية ، شاعر طبيعة دمشق وخمائل دمشق وبلابل دمشق وكل جزء من أجزائها وكما رزقت دمشق الخلود في البلدان فقد رزق شاعرها الخلود في الشعراء ، فإنه صورتها الواضحة ومرآتها الصافية ولسانها البليغ ولحنها العذب ؛ هذه هي الناحية التي شغلتنى في شعر ابن الساعاتي عن كل نواحيه الشعرية ، ولقد يذهب الشاعر في فنون شتى ، فيضعف في أكثرها ويقوى في واحد منها فيجيشه الخلود من هذا الفن

الذي قوى فيه ، وابن الساعاتي خالد من ناحية شعره الوطني
وهي كافية ، إنه ليس في حاجة إلى غيرها ، فهو خالد من هذه
الناحية التي يحن فيها إلى أخلائه :

وجيرة السفح من لبنان جادم
تلونت مثل أيامي عهدكم
مهي خلعت الصبا والشمل مجتمع
سموا الظلام على أقماره شعراً
واهاً لشرخ شباب كنت مغتبطاً
شكوت أن هزني ذو منظر بهج
كم موقف مثل حدّ السيف دونكم
وزورة لي وعين النجم ناعسة
جهات فيها فأدركت المنى كتباً
وإن نار الهوى بالدمع ما خمدت
آهاً لقلب أسير في رحالكم
وهو خالد من هذه الناحية الثانية التي يقول فيها :

يا أخلاي وإن شطّ بنا
حبذا غادية شامية
حدث الأيام عنكم وثناها
حملت عنكم إلى النفس منهاها

ما حداها الرعد إلا قصّرت
 وجد القطر سهاماً فرمى
 فأصابت مقلة دامية
 نقلت عنكم أحاديث الصبا
 بلغت عنكم شفاهاً حبذا
 لا تلم عيني على طول البكا
 وقليب القلب ما زال به
 طال ليلى طول وجدى بكم
 لو يسير الطيف في أثناؤه
 ما على ماطل ديني لو قضى
 فقرها إلا اليكم مشتهى
 وجدت من نأيكم ما وجدت
 قسماً ما بقيت عن سلوة
 أمر الدهر عليها ونهى
 دعوة الشوق لكم مسموعة
 شقة الفسطاس ممدود خطاها
 ومن البرق سيوفاً فانتضاها
 وفؤاداً طال فيكم ما اتقاها
 فأقر الله عيني من وعاءها
 حبذا ما بلغت عنكم شفاها
 كيف لا تدمع والبين قذاها
 فاتحاً إنسانها حتى أماءها
 فرماني ليلة مات ضحاها
 — وهو الطيف — أو النجم اتاها
 وعلى قاتل نفسي لو وداها
 وجميل عنكم إلا غناها
 فإلى عالم بشى مشتكاها
 إنما يحمل عنها من بلاها
 يأمر الحرص بما ينهى نهاها
 فإذا ما هتفت كنت صداها

الوطنية في أدب الغرب

ولكن شعراءنا المتقدمين ، على الرغم من هذا الصباغ الوطني الذي تبرز ألوانه في شعرهم أو تكلم لم يبلغوا في تقديس أوطانهم مبالغ الإفرنجية ، فلم يقبلوا في قصائدهم هذا التراب الذي غذي أممهم في الماضي ، أفلا نعلم أن كل ناشئ من نشء هذه الأمم قد أبقى في هذا التراب أثراً من الآثار ، فلا فرق بين جزء وجزء من هذا الوطن ، إنه واحد لا يتجزأ ، وكأن كل مدينة من مدنه وشى منقوش على ثوب الوطن ، فلا تقع العين على أى قصرٍ من قصوره وعلى أى مسجد من مساجده وعلى أى هرم من أهرامه من دون أن يذهب الفكر إلى آلاف من أهلنا الذين مضوا ولم نعرفهم . فى أجزاء هذا الوطن نشأت لغتنا ولهجتنا ، فلم نعرف كيف تنفخ روحاً فى كل شكل من أشكاله ، فى غدرانهِ وغابه وقصوره ، ولم نعرف كيف نحى أى لونٍ من ألوانه . إن مدن الوطن فى نظر الإفرنجية بمنزلة الكتب ولكنها كتب مصورة ، يقرأون فيها أخبار أجدادهم ويرون فيها صور هؤلاء

الأجداد ، إنهم يقدسون دور أحقر مدينة من مدنهم لأن هذه الدور قد أوى إليها الحب والبغض واللذة والألم في قرون متوالية ، إنها تحتفظ بأسرار رهيبة وتعرف أشياء كثيرة عن الموت والحياة ولو كانت حجارتها تتكلم لقاتل لأهلها أشياء تضحك وأشياء تبكي ، ولكن الحجارة لا تكلم إلا الذين يعرفون كيف يصغون إليها ، هذا ما قاله أحد كتّاب الغرب في بعض كتبه .

كيف يحنو أدباء الإفرنجية على أوطانهم ؟

من أقوال « جول لومتر » :

« إذا سمعت الناس يرفعون أصواتهم في الكلام على محبة الوطن جمدت مكاني وطويت حبي في قلبي حتى يكون في عزلة عن ترّهات البيان التي تجعل منه حبا باطلاً فارغاً ، ولكنني إذا وقفت في منعطف من منعطفات الساقية وأحاط نظري بنهر « اللوار » المنبسط أمامي بجذائقه وحوره وجزُرهِ المذهبة وقصبه الأزرق وسماؤه الخفيفة وهوائه اللطيف ثم امتدّ هذا النظر فرأيت على مقربة من النهر في هذا البلد المحبوب ، بلد ملوكنا القدماء ، قصرأ مصقولاً كما يصقل الجواهر ، يذكرني وطني القديم وما كان عليه في العالم شعرت حينئذٍ بفرط الحنو على هذه الأرض حيث

نبئت لي في كل ناحية من نواحيها فروع كأنها غاية في الدقة والقوة .

ولما سمع « أناتول فرانس » هذا الطراز من الكلام اشتهى أن يكون هو قائله واشتهى خاصة أن يكون قائله على هذا الوجه نفسه فإنه يرى أن دين الوطنية لا يتم إلا إذا أدخل صاحبه على شريعته المقدسة أمثال هذه الوسوسات اللظيفة التي تجعل لكل المعتقدات نوعاً من الحياة والفتنة ، فالوطنية المجردة فاترة في نظر بعض الذين تهزّم الأشكال والألوان ، فلا يحبون من الوطن إلا ما يمكن أن تحيط به العيون .

وبلغ من حنوّهم على أوطانهم أنهم جعلوا الطير جزءاً من أدبهم الوطني فقد نام « موريس بارس » ذات يوم على العشب في مدينة « كومبورغ » ولمّا استفاق من نومه رأى أن الشمس قد انحدرت وكان طائر الربيع ، وهو ما نسميه في الشام : السنونو ، يقطع صفحات الغدران . فنظر إليه « بارس » نظرات ملؤها الحب لأن هذا الطائر في معتقده جزء من أدبه الوطني . فإن أساليبه في تتبع الحشرات وفي الانقضاض في الهواء مرّة وعلى وجه الماء ليبلّ جناحيه وفي تشبّثه بالقصبات التي تنعطف

من خفته بعض الانعطاف وتغمرها أغاريد الغامضة . إن هذا كله يوحى إلى أساتيد البيان موضوعاً من الموضوعات .

ولكن ألوان الصباغ الوطني تكاد تنطق في هذا الكلام الذى تقوله مدينة « أو » الصغيرة لجماعة السّياح الذين يشاهدونها من رأس التل الواقعة عليه ، وقد روى لنا كلامها « أنا تول فرانس » : « انظروا ! إني قديمة ، ولكنى حسنة . لقد شيّد أولادى الأتقياء على تربى بروجاً وقصوراً وأنشأوا النواقيس . إني أم صالحة أعلم الناس العمل وجامع فنون السلام . وأغذى أبنائى على ذراعى . فإذا انقضى عملهم درجوا واحداً بعد واحد فرقدوا على مقربة من قدمى تحت هذا العشب الذى ترعاه الغنم إنهم يمضون ولكنى باقية لأحتفظ بذكراهم فأنا منهم بمنزلة ذاكرتهم ولهذا فإن لى عليهم حقوقاً كثيرة لأن الرجل لا يكون رجلاً إلا إذا كان يتذكر الأمور . لقد مزّق ردائى وطعنت فى ثدى فى الحروب ولكنى عشت لأنى أملت . فتعلموا منى هذا الأمل المقدس الذى ينجى الوطن ، فكروا فى تفكروا فيما وراء نفوسكم . انظروا إلى هذا الصهرىج وإلى هذا المستشفى . وإلى هذه السوق التى تركها الآباء للأبناء . واعملوا لأبنائكم كما عمل

أجدادكم لكم . فكل حجر من حجارتي يجلب الخير لكم
 ويعلمكم الواجب . انظروا إلى كنيستي وإلى داري العامة وإلى
 مستشفائي . بجّلوا الماضي ولكن فكّروا في الآتي . وسيعلم
 أبنائكم بالحلي التي وشيتم بها ثوبي الحجري » .

أظن أن أدبنا الوطني لا يزال مفتقراً إلى أشباه هذا الشعور
 العميق وهذه العاطفة الدقيقة !
 ببيان مثل هذا البيان ترسخ محبة الأوطان في القلوب .

اقرا

تصدر منذ يناير ١٩٤٣

السلسلة الشعبية الأولى التي تبث رسالة الفكر في الجمهور
وتعمل على توجيه الشعوب العربية إلى طريق الخير والحق والجمال.

آراء بعض كبار الأدباء :

● « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في
تغذية الأدب والثقافة » . . .

● « زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه
الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .

● « هذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة وترقية
الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهي
ذخر ثقافي قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون في كل
منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

التمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليا	سوريا ولبنان	٦٠ غرشا
السودان	٥٠ مليا	العراق	٦٠ فلسا

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

اقرا

المؤلفات التي ظهرت في هذه السلسلة

- | | | |
|----|---------------------------|------------------------------|
| ١ | أحلام شهر زاد | للدكتور طه حسين بك |
| ٢ | شاعر الغزل | للأستاذ عباس محمود العقاد |
| ٣ | مذبح المربخ | للأستاذ فؤاد صروف |
| ٤ | عود على بدء | » إبراهيم عبد القادر المازني |
| ٥ | دستويفسكى | » حسن محمود |
| ٦ | شاعر ملك | » على الحارم بك |
| ٧ | الشاعر الرحيم | » عبد الرحمن صدقي |
| ٨ | مذكرات دجاجة | للدكتور إسحق موسى الحسيني |
| ٩ | المذاهب السياسية المعاصرة | للأستاذ على أدهم |
| ١٠ | شفاء النفس | للدكتور يوسف مراد |
| ١١ | الكون العجيب | للأستاذ قدرى حافظ طوقان |
| ١٢ | سنوحى | للدكتور محمد عوض محمد |
| ١٣ | جميل بثينة | للأستاذ عباس محمود العقاد |
| ١٤ | من يوميات فتاة عصرية | » حسين شوقي |

للسيدة أمينة السعيد	١٥	بايرون
للأستاذ محمد كرد علي	١٦	دمشق
للأستاذة محمد فريد أبو حديد	١٧	شكسبير
وزكي نجيب محمود وأحمد خاكي		
للأستاذ يحيى حقي	١٨	قنديل أم هاشم
» على بك الجارم	١٩	سيدة القصور
» كريم ثابت بك	٢٠	الملك فاروق*
» عبد الحليم عباس	٢١	أبو نواس
» محمد فريد أبو حديد	٢٢	جحا في جانبولاد
للدكتور طه حسين بك	٢٣	صوت أبي العلاء
للأستاذين عبد الحميد يونس	٢٤	لافوازييه
وعبد العزيز أمين		
للدكتور مصطفى عبد العزيز	٢٥	قصة البنسليين
للدكتور زكي مبارك	٢٦	العشاق الثلاثة
للأستاذ طه الراوي	٢٧	بغداد مدينة السلام
» نجاتي صدقي	٢٨	بوشكين
للأستاذ أمين إبراهيم كحيل	٢٩	النار والنور
للأستاذ محمد سعيد العريان	٣٠	قطر الندى
للأستاذ طه عبد الباقي سرور	٣١	الغزالي

للأستاذ كرم ملجم كرم	٣٢ الشيخ قرير العين
للأستاذ عباس محمود العقاد	٣٣ في بيتي
للأستاذ علي بك الجارم	٣٤ فارس بن حمدان
للأستاذ صديق شيبوب	٣٥ جوتة
للأستاذ حسين فرج زين الدين	٣٦ مع الحيات
للأستاذ شفيق جبرى	٣٧ العناصر النفسية في سياسة العرب
للدكتور على مصطفى مشرفة باشا	٣٨ العلم والحياة
للأستاذ سيد قطب	٣٩ المدينة المسحورة
للدكتور عبد الوهاب عزام بك	٤٠ مهد العرب
للدكتورين م. ر. الطوبى وم. عبد العزيز	٤١ الفيتامينات
للأستاذ يوسف العش	٤٢ قصة عبقرى
للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك	٤٣ عنبرة بن شداد
للدكتور محمد عبد الحميد جوهر	٤٤ قصة العدوى
للسيدة أمينة السعيد	٤٥ مشاهدات في الهند
للأستاذ عباس محمود العقاد	٤٦ الشيخ الرئيس - ابن سينا
للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف	٤٧ أبوزيد الهلالى
للأستاذ محمد محمد فياض	٤٨ غرائز الحيوانات
للأستاذ شفيق جبرى	٤٩ بين البحر والصحراء

ترقبوا في هذا الشهر ظهور

روضت الطفل

أول مجموعة من نوعها في مكتبة الطفل العربية
تقوم على أحدث الأساليب العلمية والفنية



قصص مشوقة مفيدة

صور مبتكرة حية

ألوان جذابة زاهية

ثمان القصص ٧ قروش



تصدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة لجنة من كبار المربين

السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب

كُرَّمُ عَلَى دَرْبِ

مجموعة شذور وأمثال
في طبعة فاخرة

بقلم الأستاذ
ميخائيل نعيمة

« ... ومن محاسن هذه الأوابد أنها تسكفي قارئها
على زيادة المشقة بزيادة الحقيقة وزيادة المتعة بالاهتمام
إليها » .

« ... كتاب كهذا جدير بأن تزدان به مكتبة كل

فرد فإنه كتاب الحياة في صميمها » .

حريدة المقطم
الثلث ٢٠ قرشاً



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

اطلاب السنة التوجيهية

التوجيه في الأدب العربي

وضع الأساتذة

على الجارم بك ومحمد أحمد جاد المولى بك ومحمد
أبو بكر إبراهيم ومحمد السيد عامر وعبد زياته عبده
وحسين حسن مخلوف

الثن ٧ قروش



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مؤلفات الدكتور طه حسين بك

ص	
٢٠	على هامش السيرة أول
٢٠	» » » ثان
٢٥	» » » ثالث
٢٠	دعاء الكروان
١٨	صوت باريس (جزءان) ثمن الجزء
٢٥	شجرة البؤس
٢٥	جنة الشوك
٤٠	مستقبل الثقافة في مصر
١٨	الحب الضائع
٢٥	الأيام (جزءان) ثمن الجزء
٣٥	فصول في الأدب والتقد
٢٥	أديب
١٨	لحظات (جزءان) ثمن الجزء
٤٠	حديث الأربعاء ثالث
٢٥	مع أبي العلاء في سجنه

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مؤلفات في علم النفس

- ٤٥ مشكلة السلوك السيكوباتي للدكتور صبرى جرجس
- ٣٥ علم النفس الفردى للأستاذ إسحق رمزى
- ١٠ علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم والأستاذين على الجارم بك ومصطفى أمين بك
- ٣٠ مشكلات الأطفال اليومية تأليف الدكتور دجلال توم وتعريب الأستاذ إسحق رمزى
- ٢٠ مجلة علم النفس رئيسا التحرير الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى زيور

تحت الطبع

- الإدراك الحسى عند ابن سينا للأستاذ محمد عثمان نجأتى
- مبادئ علم النفس العام للدكتور يوسف مراد

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



دار المعارف

للطباعة والنشر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الإسكندرية	:	٢ ميدان محمد على
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمّن الله بالقدس
مكتب لبنان وسوريا	:	شارع المعرض ببيروت

809:J11bA:c.2

جبرى ، شفيق

بين البحر والصحراء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030379

American University of Beirut



809

J11bA

c.2

General Library

809
J116A

C.2